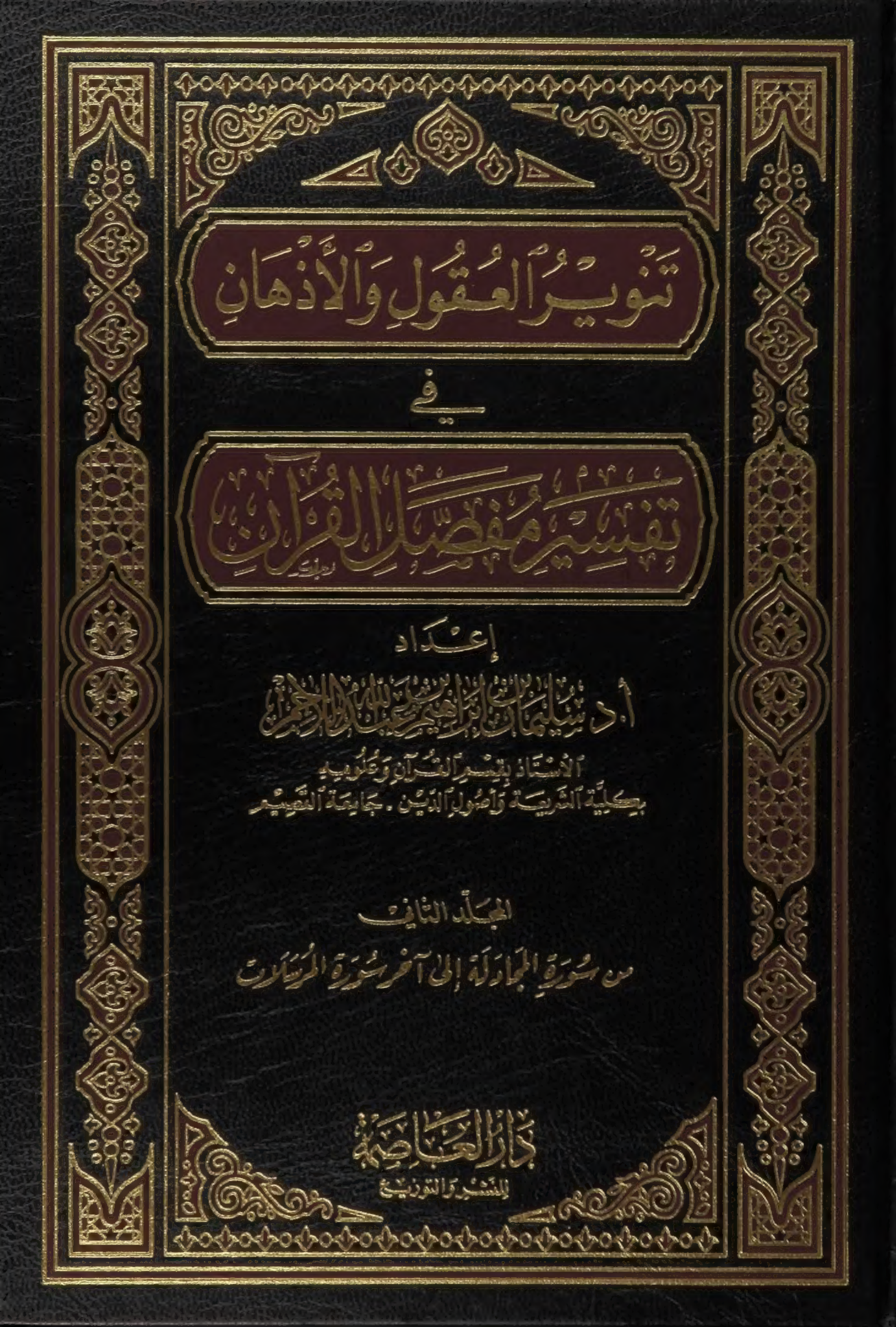


تنوير العقول والأذهان
في
تفسير مفصل القرآن
إعداد
أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
بكلية الشريعة وأصول الدين . جامعة القصيم
المجلد الثاني
من سورة المجادلة إلى آخر سورة المرسلات
دار العاصمة
للنشر والتوزيع


تنوير العقول والأذهان
في
تفسير مفصل القرآن
٢

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /

سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٣مج

ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

×-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢
ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
×-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

تنوير العقول والأذهان

في

تفسير مفصل القرآن

إعداد

أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

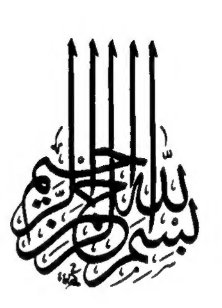
بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الثاني

من سورة المجادلة إلى آخر سورة المرسلات

دار العاصمة

للنشر والتوزيع



تفسير سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ـ عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»[1].

وفي رواية عنها أنها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ـ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وزوجها أوس بن الصامت»[2].

وعن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: «فيَّ ـ والله ـ وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت:

---

(١) أخرجه البخاري ـ معلقًا ـ في كتاب التوحيد ـ باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤-٤٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثوبًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ـ ﷺ ـ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «**يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾** إلى قوله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾». قالت: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «**مريه فليعتق رقبه**». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «**فليصم شهرين متتابعين**» فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام قال: «**فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمر**» قالت: قلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «**فإنا سنعينه بعَرقٍ[1] من تمر**» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بِعَرَقٍ آخر، قال: «**قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا**» قالت: ففعلت»[2].

قال ابن كثير[3]: «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام».

ثم ذكر حديث سلمة بن صخر رضي الله عنه ـ من رواية الإمام أحمد[4]، وفيه: أنه ظاهر

---

(١) العَرَق: بفتح العين والراء: الزنبيل أو المكتل المنسوج من الخوص انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «عرق».

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ـ باب في الظهار ٢٢١٤، وأحمد ٦/ ٤١٠-٤١١، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٤.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٦٢.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٣٧، وأبو داود في الطلاق ـ باب في الظهار ٢٢١٣، والترمذي في التفسير ٣٢٩٩، وابن ماجه في الطلاق ـ باب الظهار ٢٠٦٢.
وقال الترمذي: «حديث حسن، محمد بن يسار ـ يعني راوي الحديث عن سلمة بن صخر ـ قال: لم يسمع عندي من سلمة بن صخر».

من زوجته لما دخل رمضان حتى ينسلخ خوفًا أن يقع عليها في نهار رمضان فوقع عليها ذات ليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك وأمره بالتكفير عن ذلك بما ذكر الله عز وجل في هذه السورة.

وأيضًا فإن الثابت في الصحيحين وغيرهما في قصة سلمة بن صخر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر ـ والعَرَق: المكتل ـ قال: «أين السائل»؟. فقال: أنا. قال: «خذ هذا فتصدق به». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها ـ يريد الحرتين ـ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»[1].

فهذا هو الثابت المتفق عليه في قصة سلمة بن صخر، وهو أنه جامع في نهار رمضان، وليس فيه شيء عن سبب نزول الآيات في الظهار ـ وإن كان قد أعطي حكم المجامع في نهار رمضان حكم المظاهر من زوجته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

(قد) حرف تحقيق، تفيد تحقيق سماعه عز وجل قولها وشكواها كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي: تحاجك وتخاصمك، وهي خولة[2] بنت ثعلبة، أو بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها (في زوجها) أوس بن الصامت ـ رضي الله عنه، كما جاء في سبب النزول.

وقد رُوِيَ: «أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى لها، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٧١.

(٢) يقال: خولة، ويقال خويلة: انظر «جامع البيان» ٢٢/٤٤٦.

العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»(١).

والمعنى: قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي جاءتك تحاجك وتخاصمك في شأن زوجها، وما حصل منه معها.

والمراد: أنها جاءت تطلب حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها كما قالت في قصة سبب النزول: «والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه».

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وترفع إلى الله ضراعتها وفاقتها وحالها وحال صبيتها، وتسأله الفرج، كما في قولها: «يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك»(٢).

وفي رواية أنها قالت: «أشكو إلى الله فاقتي»(٣).

ورُوي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا»(٤).

فجادلت الرسول الله ﷺ وحاجَّته وخاصمته ليبين لها حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها. ويؤخذ من هذا وجوب التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ.

وشكت إلى الله عز وجل وحده الذي إليه الشكوى فلم تشك حالها إلى النبي ﷺ لعلمها أنه ﷺ بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا كما قال فيما حكاه الله عز وجل عنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وشكت حالها إلى الله عز وجل مع فعل السبب وهو البحث عن مخرج لها ولزوجها مما حصل منه، وذلك بمجيئها إلى رسول الله ﷺ لبيان الحكم في ذلك، ولهذا سارعت ـ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢ ـ عن ابن زيد.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق ـ باب الظهار ٢٠٦٣، والحاكم ٢/ ٤٨١، ومعنى «نثرت له بطني» أي: أنها ولدت له أولادًا كثيرين، وهي شابة.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٧ ـ عن أبي العالية.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٦.

رضي الله عنها ـ إلى مساعدة زوجها بعرق من تمر للتكفير عما حصل منه.

ويؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى عز وجل الذي يكشف الضر ويرفع البلوى مع بذل الأسباب، كما هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل أن يعتمد المسلم على الله عز وجل ويأخذ بالأسباب، كما قال عز وجل ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء:٣٢]

وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[1].

فهو عز وجل مالك الملك وإليه المشتكى كما قيل:

.... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه[2]

ولقد كان من أعظم أسباب ضعف الأمة على مستوى الأفراد والجماعات والدول ضعف الاعتماد على الله، والتقصير في الأخذ بالأسباب، أو الاعتماد عليها فقط، فكم نشكو أحوالنا إلى الناس، وكم نقصر في الأخذ بالأسباب الكونية، وكم نعتمد في طلب جلب النفع ودفع الضر على الأسباب المادية فقط.

فإذا كان للإنسان حاجة كأن يريد تحقيق أمر من الأمور، أو أصابته مصيبة من فقر أو مرض أو تسلط عدو، ونحو ذلك أنزل حاجته ومصيبته بالآخرين، مع الغفلة عن مسبب الأسباب وهو الله عز وجل الذي بيده حقًا جلب النفع ودفع الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل، أو غنى عاجل**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا شطر بيت من قصيدة تنسب للأديب أبي بكر محمد بن محمد بن رشد البغدادي في دعاء عرفة والبيت بتمامه:

إليّ فإني ربهم ومليكهم ... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٤٥، والترمذي في الزهد ٢٣٢٦، وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ومن العجيب والواقع فعلا أن بعضًا من الإخوة كانوا في مراجعة لإحدى الوزارات فمروا على أحد الموظفين ليساعدهم لإنهاء معاملتهم في الوزارة، وكان رجلاً صالحًا، فقال لهم: هذا المسجد صلوا فيه ركعتين واسألوا الله التيسير وسوف يتيسر =

ولقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقال الآخر:

لا تشكونّ لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب فيما قد يعرض للإنسان في حياته من أمور يحتاج فيها إلى ذلك، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها، ومن هذا قول الشافعي رحمه الله.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا قال الآخر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وكلنا يعرف قصة سلمان الفارسي مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنهما وزوجته رضي الله عنها كما في حديث أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل قال: فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[(١)].

=

أمركم بإذن الله عز وجل؟ ولك أن تتصور ماذا كان جوابهم لقد كان جوابهم أن قالوا: موضوعنا صعب، ما هي المسألة مسألة ركعتين ـ وهذه القصة واقعة فعلاً. وهذا لسان حال كثير من المسلمين اليوم، إن لم يكن لسان المقال عند بعضهم وأترك لك أخي القارئ تفسير هذا !!.

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخلت عليّ خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ ـ بذاذة هيئتها، فقال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة. قالت: فقلت يا رسول الله امرأة لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون، فجاءه. فقال: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم، وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[1].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني»[2].

والإنسان في هذه الحياة معرض لأنواع من المصائب والابتلاء في نفسه وأهله وولده وماله وغير ذلك، وقد تحيط به ظروف نفسية أو مرضية أو مالية أو اجتماعية ونحو ذلك يضيق بها ذرعًا وربما لو أحسن التعامل معها بتوفيق الله ثم بمشورة من يثق به من إخوانه لوجد بإذن الله عز وجل وعونه منها مخرجًا بدلاً من أن ينغلق المرء على نفسه وتحيط به الوساوس والهموم، وتحتوشه الشياطين، فمن ألمت به ملمة فلا بأس بعد اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله المخرج منها أن يستعين بمن يثق بهم من إخوانه من أهل الخبرة والتجربة والرأي السديد والنصح، وقد يكون الكثير منهم مر عليه مثل هذه المشكلة أو على غيره ممن يعرفهم وعرف أحوال الناس في هذا فيهوّن على أخيه مصابه ويقوي ثقته بربه، وأن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه، كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، ويوجهه إلى فعل السبب المناسب بعد التوكل على الله عز وجل.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٢٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٥٥.

ولقد أحسن من قال:

إذا بلـغ الـرأي المشـورة فاسـتعن   بـرأي نصـيح أو نصـيحة حـازم
ولا تجعـل الشـورى عليـك غضاضـة   فـإن الخـوافي قـوة للقـوادم

ولقد ابتليت في أول عملي في التدريس ـ وقبل أن أجرب الناس ـ بزميل حصل منه بعض الأذى لي ـ عفا الله عني وعنه ـ فضقت ذرعًا بذلك، لأني لا أرى سببًا لذلك، وفكرت في الانتقال من ذلك العمل لأجل ذلك، فشرحت لأحد الإخوة من ذوي التجربة السبب الذي دعاني للتفكير في موضوع النقل، فقال لي هوّن عليك هذا من تنافس الأقران فعرفت من حينها أن هذا الأمر ـ وإن كان لا يجوز ـ قد مر على غيري، وعرفت أن كل ذي نعمة محسود، فصبرت على ذلك وحمدت العاقبة بفضل الله وتوفيقه.

وذكر أحد الثقات أن أحد الإخوة تنكرت له زوجته بعد عشرة طيبة طويلة فشق ذلك عليه، واستشار أحد الإخوة المحبين من ذوي الخبرة والتجربة، فقال له هذا الأخ الخبير المجرب كيف أنت معها في أمر النساء «يعني الجماع»؟ فقال: لقد ركبتني ديون وهموم حتى أصبحت لا أهنأ بنوم، فكيف بأمر النساء، أي: ليس لي فيه عهد منذ زمن طويل، فقال له هذا الأخ المجرب: هذا هو السبب فيما حصل من زوجتك، فعاد الزوج معها في هذا الأمر بما تيسر له من أسباب فعادت العشرة الطيبة بينهما وكما قيل:

فـإن تسـألوني بالنسـاء فـإنني   خـبير بـأدواء النسـاء طبيـب
إذا شـاب رأس المـرء أو قـل مالـه   فلـيس لـه مـن ودهـن نصـيب
يـردن ثـراء المـال حيـث وجدنـه   وشـرخ الشبابُ عنـدهن عجيـب

وهذا أمر جبلت عليه المرأة، وكذا الرجل هو الآخر يريد منها مثل ما تريد منه، فكل منهما مطالب بأداء حق الآخر، وكل فتور من أحدهما في حق الآخر، بل وفي الظهور أمامه بالمظهر الحسن هو سبب لبرود العلاقة بينهما، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[1].

والأخبار في مثل هذا كثيرة مستفيضة، فكم من إنسان انغلق أمامه ـ بحسب تصوره ـ باب الرزق، أو الزواج أو زوال ما يعانيه من مشكلات مرضية أو نفسية أو اجتماعية، أو غير

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢/ ٤١٧.

ذلك، فزال ذلك بتوفيق الله عز وجل وتيسيره بعد استشارة من يثق بهم من إخوانه من أهل النصح والمعرفة والتجربة وبالمقابل فكم من زوجين افترقا، وكم من والد وأولاده وإخوة وأقارب وجيران وأصحاب ساءت علاقاتهم وتنغصت حياتهم وتفاقم الخلاف بينهم وربما وصل الأمر بينهم إلى الهجران والتقاطع بسبب اختلاف لا يكاد يذكر وما أكثر هذا[١].

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي: والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وضمير المثنى يعود إلى النبي ﷺ وإلى خولة بنت ثعلبة ـ رضي الله عنها ـ وفي هذا إثبات سماع الله عز وجل ـ لكلامهما معًا، كما أن في أول الآية إثبات سماع الله لكلامها هي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«السميع» و «البصير» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل، يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يسمع جميع الأقوال والأصوات، السر، والجهر عنده سواء كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قال ابن القيم[٢] في كلامه عن قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾: «فلا يشك صحيح الفهم البته في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب ـ تعالى حقيقية، وأنه بنفسه سمع».

وقال أيضًا في «النونية» [٣]:

(١) والسبب في هذا كله أن كثيراً من المسلمين ـ وإن ولدوا في الإسلام وشبوا فيه وربما شابوا لم يربوا على ما جاء في القرآن الكريم من التوجيهات الإلهية، ولا على ما جاء في السنة المطهرة من التعاليم النبوية تجاه مشاكل الحياة وكيفية التعامل معها، فأصبح كل صاحب يريد الكمال من صاحبه والكمال في البشر نادر عزيز.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٥.

(٣) ص١٤٦.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

ويدل «البصير» على إثبات صفة البصر لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يبصر ويرى جميع المخلوقات لا تخفى عليه خافية منها ومن أعمال الخلق وأحوالهم وأقوالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فهو عز وجل - يسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم[١]:

وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء ... تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

فهو - سبحانه وتعالى يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويبصر ويرى جميع الكائنات والمخلوقات.

قال الشاعر:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النُّحَّل
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

قال السعدي[٢] في كلامه على الآية: «وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها».

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، و «يظاهرون» صلة الموصول، وخبره (ما هن أمهاتهم).

قرأ عاصم (يُظاهرون) بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وألف بينهما في الموضعين،

---

(١) في «النونية»، ص١٤٦

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٨.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء وفتحها «يَظّاهرون» وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها «يَظَّهّرون».

ومعنى (يظاهرون من نسائهم) أي: يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: كما أنه يحرم عليَّ أن أركب ظهر أمي، وأن أطأها فكذلك أنت أيتها الزوجة يحرم عليَّ أن أركبك وأن أطأك. وسُمي ظهارًا اشتقاقًا من الظهر، وقد كان هذا في الجاهلية يعد طلاقًا يحرم المرأة مطلقًا.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها «خويلة» بنت ثعلبة فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمتِ عليّ وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ما شطة تمشط رأسه ـ فقال: «يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء» فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيرًا فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: «فدعا بشطر وسق» ـ ثلاثين صاعًا، والوسق: ستون صاعًا ـ فقال: «ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك»[1].

وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها حسبت أن يكون ذلك طلاقًا فأتت رسول الله ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه، وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٨-٤٤٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤: «إسناد جيد قوي، وسياق غريب».

زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ - فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها. قال: فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله»(١).

والخطاب في قوله (منكم) للمؤمنين أمة الإجابة.

والمراد بـ (نسائهم) زوجاتهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ «ما» نافية عاملة عمل «ليس»، و «هن» اسمها مبني على الفتح في محل رفع، و «أمهات» خبرها منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم، وضمير «هم» مضاف إليه، أي: ليست أزواجهم أمهاتهم، ولا يمكن أن تكون أزواجهم أمهاتهم بمجرد هذا القول ونحوه، فنفى ما أثبتوه، وهذا تكذيب لهم. والأمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، وهي التي ولدت، ويدخل فيها الجدات وإن علون، من أي جهة كن، كما تدخل فيها الأمهات من الرضاع لقوله تعالى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣]، ولقوله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(٢).

﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ «إن»حرف نفي بمعنى «ما» أي: ما أمهاتهم.

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ إلا أداة حصر، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا اللائي ولدنهم، أو إنما أمهاتهم حقيقة اللائي ولدنهم.

فأبطل الله عز وجل أن تكون الزوجة أماً بمجرد الظهار، وبيَّن أن أم الشخص حقيقة هي التي ولدته، ثم بين نكارة هذا القول وكذبه وشده حرمته فقال:

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ الواو عاطفة، و «إن» حرف توكيد ونصب والضمير «هم» اسمها مبني على السكون في محل نصب، وجملة (ليقولون) خبرها في محل رفع، واللام فيه للتوكيد.

(منكرًا) صفة لمصدر محذوف، أي: ليقولون قولاً منكرًا، أو مفعول ليقولون.

والمنكر: ما أنكره الشرع، وعُرْفُ المسلمين قولاً كان أو فعلاً.

وقدّم وصف القول بكونه منكرًا على الموصوف وهو القول إشارة إلى عظم نكارته وشدتها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٥. وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥، ومسلم في الرضاع ١٤٤٧، والنسائي في النكاح ٣٣٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٩٣٨ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(وزورا) أي: وكذبا باطلاً، مزوّرا مخالفًا للحق، والزور من أكبر الكبائر، ولهذا قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1].

فبين الله ـ عز وجل ـ أن الظهار كذب في ثلاثة مواضع الأول: في قوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ فنفى ما أثبتوه وهذا حقيقة التكذيب.

الثاني: في قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمنكر ما خالف الشرع والحق.

الثالث: في قوله ﴿وَزُورًا﴾ والزور الكذب.

وإذا كان الظهار منكراً من القول وزوراً وكذباً، فهو محرم غاية التحريم ومرتكبه آثم إثما عظيماً.

قال ابن القيم[2]: «الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً، فهو خبر زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت».

وقال أيضًا[3] بعد ما ذكر الاختلاف في قول المظاهر: أنت عليَّ كظهر أمي، هل هو إنشاء أو إخبار قال: «وفصل الخطاب أن قوله : أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إنشاءً وإخبارًا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرًا من القول وزورًا، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار».

وإنما كان الظهار قولاً منكرًا، فاحشًا شرعًا وعرفًا، وزوراً وكذبًا وباطلاً ومحرمًا غاية التحريم؛ لأن الزوجة لا تكون أمًّا بمجرد الظهار، ولا تطلق بمجرد الظهار، ولا تحرم على زوجها بمجرد ذلك، ولأن أمر التحليل والتحريم إلى الله عز وجل ولا يجوز للمسلم أن يحرم على نفسه شيئًا مما أباحه الله له، ولو حرم ذلك لم يكن حرامًا.

فقد قال عز وجل لنبيه ـ ﷺ ـ لما حرم على نفسه ﷺ العسل أو مارية القبطية[4]

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠١ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٩.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٨-٤١٩.

(٤) كما جاء في سبب نزول الآيات، مطلع سورة التحريم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَـٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ١، ٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

الواو: عاطفة و «إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، (عفو) خبرها، واللام للتوكيد، و(غفور) خبر ثان لـ «إن».

و «العفو» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة العفو الواسع لله عز وجل ومعنى «العفو» المتجاوز عن ذنوب عباده، فيمحوها، ولا يعاقبهم عليها.

قال ابن القيم[1]:

وهو العفو بعفوه وسع الورى   لولاه غار الأرض بالسكان

بل إنه عز وجل يبدل سيئات التائبين حسنات إذا صدقت توبتهم كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

وعفوه عز وجل عفو كامل مع القدرة على العقوبة، بخلاف عفو المخلوق فقد يكون عن ضعف وعدم قدرة ولهذا قرن الله ـ عز وجل ـ عفوه بالقدرة، فقال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

و«الغفور» اسم من أسماء الله ـ عز وجل على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل.

وهو مأخوذ من المغفرة، وهي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة ـ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ في المناجاة[2]. ومنه سمي «المغفر» البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره وتقيه السهام.

وحيث اجتمع في هذه الآية «العفو» و «الغفور» فالأولى حمل «الغفور» هنا على معنى الستر، أو يحمل «العفو» على العفو عن ترك الواجب، و«الغفور» عن ارتكاب المحرم ـ لئلا يقال بالترادف، ولأن التأسيس أولى من التوكيد.

---

(١) في «النونية» ص ١٤٨.

(٢) سبق تخريجه.

وفي ختم الآية بقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار بأن المظاهر قد عرَّض نفسه للإثم والعقوبة لولا عفو الله ـ عز وجل ـ ومغفرته، وبيان أن الله ـ عز وجل ـ عفوٌّ غفور لمن تاب إليه من هذا القول المنكر والزور وغيره، وعما خرج عن سبق اللسان من غير قصد ونحو ذلك.

قال ابن كثير[١]: «﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أختي فقال: «أختك هي»؟ قال ابن كثير: فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة، وما أشبه ذلك».

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾

بعد أن نفى الله ـ عز وجل ـ أن تكون الزوجات المظاهَر منهن أمهات لمن ظاهروا منهن، وبيَّن أن أمهاتهم حقيقة هن اللاتي ولدنهم، وأن الظهار منكر من القول وزور وباطل بيَّن ما يلزم على الظهار من الكفارة لمن أراد العود إلى جماع زوجته.

قوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي قالوه، أي: يعودون لجماع زوجاتهم، أو يعزمون على ذلك، وهذا يدل على أن الظهار لا يحرم الزوجة على زوجها، ولا يكون طلاقًا، إنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه قال: «كان الإيلاء والظهار طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء في أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة»[٢].

وقيل: ثم يعودون إلى الظهار بعد تحريمه.

والصحيح القول الأول، وعليه جمهور السلف وأهل العلم، فالكفارة لا تجب بنفس الظهار وإنما تجب بالعود إلى الجماع، والعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ خبر المبتدأ «والذين» ودخلت عليه الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط، أي: فعليهم تحرير رقبة.

وتحرير الرقبة: تخليصها من الرق، بحيث تكون منافع الشخص الرقيق مملوكة له بعد

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٥.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤.

أن كانت مملوكة لسيده، قال تعالى عن مريم عليها السلام أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي: مخلصاً لعبادة الله ولخدمة بيت المقدس.

والمراد بالرقبة النفس المملوكة، ذكرًا كانت أو أنثى، ويشترط أن تكون الرقبة في كفارة الظهار مؤمنة لقوله تعالى في كفارة القتل: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

ولحديث معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها ﷺ ـ «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

كما يشترط في الرقبة أن تكون سليمة من العيوب التي تجعلها معدومة المنافع، لأن التحرير معناه تمليك الرقيق منافع نفسه.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: يطلق في القرآن الكريم على الجماع قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل الجماع.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً قال: «يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفّر فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله»؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفّر فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «ألم يقل الله

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، والنسائي في السهو ١٢١٨، وأحمد ٥/٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٢٢١، والنسائي في الطلاق ٣٤٥٧، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٩ وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(من قبل أن يتماسا)» قال: أعجبتني، قال: «أمسك حتى تكفّر»[١].

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من أحكام الظهار، والتشديد فيه والميم للجماعة، والموعظة: هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والحث على فعل الطاعات، والزجر عن المعاصي[٢].

وهنا ذكر الله عز وجل حكم الظهار، وأنه منكر وزور، وفي هذا تحذير وترهيب، ودلالة على شدة تحريمه، كما ذكر ما يلزم المظاهر من زوجته من الكفارة إذا أراد العود إلى جماعها، وفي هذا وما قبله دلالة على أن الظهار لا يحرم الزوجة، وإنما يحرم جماعها حتى يكفّر.

وختم الله عز وجل ـ الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وفي هذا بعد ذكر الأحكام فيها في الظهار ترغيب لمن امتثل أمر الله وتاب وأناب إليه مما وقع منه من الظهار وغيره من الذنوب فإن الله عز وجل ـ يتجاوز عن عقوبتها ويسترها عن الخلق.

وقد دلت الآيات على تحريم الظهار، بل على شدة تحريمه من وجوه خمسة **الأول:** وصفه بالمنكر، **والثاني:** وصفه بالزور، **والثالث:** إيجاب الكفارة فيه، **الرابع:** الوعظ من الوقوع فيه **الخامس:** قوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وهذا إنما يكون عن الذنب.

كما ختم الله عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وفي هذا وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

و «ما» في قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

والخبير اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته ـ عز وجل.

ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان ـ عز وجل ـ مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها

---

(١) أخرجه البزار وقال: «لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا» هكذا ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» ٨/ ٦٦.

(٢) من عجيب ما مرّ عليّ أني لما أرسلت بحوث الترقية لدرجة أستاذ، وكانت تفسيرا لبعض السور على غرار هذا المنهج، كتب أحد الفاحصين ضمن ملحوظاته ـ عفا الله عني وعنه «أن هذه البحوث مجرد تفسير وعظي» فيا سبحان الله، ما أدري ما هو التفسير، وما قيمته إذا لم نلحظ فيه الوعظ، والله عز وجل يقول: (ذلكم توعظون به) ويقول سبحانه وتعالى: (إن الله نعمّا يعظكم به) [النساء: ٥٨]، وكان التفسير في نظر البعض حشو من الأقوال التي لا دليل عليها، ومن القراءات والأعاريب الشاذة، والتي تحول دون فهم القرآن فهماً صحيحاً، وأخذ العظة والعبرة منه ـ اللهم غفراً.

وجلياتها من باب أولى.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن عصى الله وخالف أمره، لأن مقتضى خبرته بأعمال عباده أن يحاسبهم ويجازيهم عليها، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن فيه إشارة إلى خبرته عز وجل التامة بأحوال العباد وما يصلحهم، ولهذا شرع لهم ما شرع من الأحكام التي فيها صلاحهم في الحال والمآل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الفاء: استئنافية، و «من» اسم شرط جازم و «لم» حرف نفي وجزم وقلب و «يجد» فعل الشرط، أي: فمن لم يجد الرقبة، أو قيمتها.

(فصيام) الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية.

(شهرين) مثنى «شهر» والسنة اثنا عشر شهرًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهر ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرون يومًا، كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ أنه سمع رجلاً يقول: الليلة ليلة النصف فقال له: ما يدريك أن الليلة النصف سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها، وحَبَس، أو خَنَسَ إبهامه»[١].

وفي حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا»[٢].

(متتابعين) أي: متصلين لم يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو فصل بينهما بصيام رمضان ـ فهذا كله لا يقطع التتابع.

فإن ابتدأ الصيام من أول الشهر كفاه إكمال شهرين حسب رؤية هلال كل واحد منهما، سواء كمل كل منهما، أو كان كل منهما تسعة وعشرين يومًا، أو كمل أحدهما ونقص الآخر. فالمعتبر كمال الشهرين دخولاً وخروجًا ولا يلزم كون ذلك ستين يومًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٨، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩، والنسائي في الصيام ٢١٤٠

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١٠٨٤.

وإن ابتدأ الصيام في أثناء الشهر لزمه إكمال ستين يومًا.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل الجماع، وكرر هذا لتوكيد وجوب التكفير عن الظهار قبل العودة إلى جماع الزوجة المظاهر منها ودواعيه من المباشرة ونحو ذلك، وذلك أدعى لإخراج الكفارة، بل وإلى المبادرة في إخراجها.

فإن عجز عن العتق وانتقل إلى الصيام حرم عليه وطؤها طيلة الشهرين، فإن وطئها فيهما انقطع التتابع، وقيل: لا ينقطع. والصحيح الأول.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام لقوله ﷺ لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى: «هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكينين صاع»[1].

واستحسن بعض أهل العلم أن يكون مع الطعام إدام، ولو غداهم أو عشاهم كفى.

والمسكين: هو الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله ـ نسأل الله العافية ـ ولا بد من استيفاء عدد «ستين مسكينًا» فإن لم يجد الستين أطعم من وجد بقدر إطعام ستين مسكينًا.

ولم يقل هنا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ كما ذكره مع العتق والصيام، اكتفاء بذلك، وعلى هذا فلا يجوز الجماع قبل التكفير مطلقًا. وقيل: إذا كان التكفير بالإطعام جاز الجماع قبله لأنه لم يقل مع الإطعام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ والصحيح الأول.

واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الكفارة هل تسقط عنه أولا على قولين: فمن أهل العلم من قال: لا تسقط بالعجز عنها، بل تبقى في ذمته، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بعَرَق من تمر، وأعانته زوجته بمثله حتى كفّر، كما استدلوا بأن النبي ﷺ أعطى سلمة بن صخر لما جامع في نهار رمضان وعجز عن الكفارة عرَقاً من التمر من الصدقة، فلو كانت الكفارة تسقط بالعجز عنها لما تصدق عليهما ليخرجاها من الصدقة.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الكفارة تسقط بالعجز عنها، كما تسقط الواجبات بالعجز عنها وعن أبدالها، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ لما أمر سلمة بن صخر ـ

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨١٤، ومسلم في الحج ١٢٠١، وأبو داود في المناسك ١٨٥٦، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٥١، والترمذي في الحج ٩٥٣، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٩ من حديث كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه.

رضي الله عنه ـ بالتصدق ـ بعَرَق التمر، قال له: «أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي » فقال له النبي ﷺ «**أطعمه أهلك**»(١) .

قالوا: فهذا يدل على سقوطها بالعجز، ولو لم تسقط عنه لما أمره بإطعامها لأهله، لأن الرجل لا يكون مصرفًا لكفارته، كما لا يكون مصرفًا لزكاته.

وأجاب بعض أهل العلم عن هذا بأنه إذا عجز عن الكفارة وكفر عنه غيره جاز أن يأكل منها هو وأهله لقصة سلمة بن صخر وغيره.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن سقوط الكفارة بالعجز خاص بكفارة الجماع في نهار رمضان لقصة سلمة بن صخر رضي الله عنه أما غيرها من الكفارات فلا تسقط بالعجز واختاره أبو البركات ابن تيمية رحمه الله(٢).

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الإشارة لما شرع الله عز وجل من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وما شرع فيها من الكفارة، واللام في قوله (لتؤمنوا) لام التعليل، أي: لأجل أن تؤمنوا بالله ورسوله.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وضده الكفر.

والإيمان بالرسول ﷺ شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله ـ عز وجل ـ بقوله ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه ذلك لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» بقوله ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»(٣).

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر الله عز وجل ـ من أحكام الظهار في الآيات السابقة وإلى غير ذلك مما أنزل الله عز وجل من أحكام.

و«حدود» جمع حد، والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض وهي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧ - من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

مراسيمها التي تفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها فلا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

والمشار إليه في قوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ القسمان، ففيه النهي عن الظهار، والأمر بالكفارة قبل المسيس.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، (للكافرين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(عذاب) مبتدأ مؤخر و(أليم) صفة له وفي تقديم الخبر إفادة قصر العذاب الأليم على الكافرين وحصره فيهم لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

و«الكافرين»: الذين كفروا بالله فجحدوا وجوده وربوبيته وألوهيته، وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئاً من ذلك. والكفر: ضد الإيمان، و«العذاب» هو النكال والعقوبة.

و«أليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على شدة ألم عذابهم، وهو «فعيل» بمعنى «مفعل» أي مؤلم موجع حسًا ومعنى مؤلم حسًا للأجساد، ومؤلم معنى للقلوب.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ وأنه عز وجل سمع قول المجادلة في زوجها وتحاورهما هي والرسول ﷺ ويسمع ـ عز وجل ـ جميع الأصوات والأقوال.

٢ ـ أن المشتكى إلى الله ـ عز وجل ـ في جميع الأحوال فهو الذي ترفع إليه الشكوى ويكشف الضر ويرفع البلوى.

٣ ـ ينبغي لمن أشكل عليه شيء من أمر دينه أن يسأل أهل العلم.

٤ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «السميع» وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل.

٥ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» وما يدل عليه من بصره ـ عز وجل ـ ورؤيته واطلاعه على كل شيء.

٦ ـ أن الظهار من الزوجات لا يحرمهن ولا يجعلهن بحكم أمهات الأزواج وإنما أمهاتهم اللاتي ولدنهم.

٧ ـ أن الظهار منكر شديد من القول وزور من أكبر الكبائر، ومحرم غاية التحريم.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العفوّ» و «الغفور» وصفة العفو التام والمغفرة الواسعة له ـ عز وجل.

٩ ـ يلزم من عاد إلى جماع زوجته التي ظاهر منها وعزم على ذلك إخراج كفارة الظهار قبل الجماع، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع الصيام أطعم ستين

مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٠ ـ يشترط في تحرير الرقبة أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤثرة على منافعها، لأن معنى تحريرها تمليكها منافعها كما يشترط أن تكون مؤمنة قياساً على كفارة قتل الخطأ.

١١ ـ حرص الإسلام على تحرير الرقيق وتخليصه من الرق، لهذا أوجب تحرير رقبة في كفارة الظهار، كما أوجبها في كفارة القتل، والجماع في نهار رمضان، وخيرّ بينها وبين الإطعام والكسوة في كفارة اليمين.

١٢ ـ وعظ الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بما أنزل من أحكام الظهار والتشديد فيه.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وما يدل عليه من إثبات سعة علمه ـ عز وجل ـ وخبرته واطلاعه على أعمال العباد وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

١٤ ـ من لم يجد الرقبة أو لم يجد قيمتها فعليه صيام شهرين متصلين لا يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو تخللها صيام شهر رمضان فلا يقطع التتابع.

١٥ ـ إذا لم يستطع المظاهر صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٦ ـ عناية الإسلام بالمساكين وحرصه على سد حاجتهم، لهذا أوجب في كفارة الظهار إطعام ستين مسكيناً على من لم يستطع التحرير والصيام.

١٧ ـ يسر الإسلام وسماحة أحكامه حيث تدرج بمن لم يستطع التحرير إلى الصيام، وبمن لم يستطعهما إلى الإطعام.

١٨ ـ أن الله ـ عز وجل ـ شرع أحكام الظهار، وما يترتب عليه من الكفارة وغير ذلك لأجل الإيمان به ورسوله واتباع شرعه والوقوف عند حدوده فعلاً للواجبات واجتنابا للمنهيات.

١٩ ـ جواز عطف وصف الرسول ﷺ على لفظ الجلالة بالواو في باب الإيمان والطاعة بخلاف باب المشيئة.

٢٠ ـ الوعيد والتهديد للكافرين بالعذاب الأليم عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ في هذه الآية والتي بعدها وعيد شديد وتهديد أكيد لمن حادّ الله ورسوله وكفر بآياته.

والمحادة: المشاقة والمخالفة والمعاندة، مأخوذة من الحد لأن المشاق والمخالف المعاند يأخذ حدًا غير حد الآخر ويكون بالحد المقابل والمخالف.

فمعنى ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يشاقون ويخالفون ويعاندون الله ورسوله، وذلك بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه عز وجل «الله» بالواو لأن محادة الرسول ﷺ من محادة الله عز وجل، كما أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء:٨٠].

﴿كُبِتُوا۟﴾ خبر «إن» في محل رفع، أي: أهينوا وأذلوا وأخزوا وأغيظوا وأهلكوا.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الكاف بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، أي: كبتًا مثل كبت الذين من قبلهم، أي: كما أهين وأذل وأهلك الذين من قبلهم من أشباههم من المحادين لله ورسله، وفي هذا توكيد لقوله (كبتوا) وبيان أن هذه سنة الله ـ عز وجل ـ في المحادين له ولرسله، وإشارة إلى كمال قدرته عز وجل على ذلك فالذي أهان وأذل المحادين السابقين هو أقدر على إهانة المحادين اللاحقين من باب أولى، كما قال عز وجل في البعث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]،

وهذه الآية كقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فقد أكد الله ـ عز وجل ـ هذا الوعيد والتهديد للمحادين له ولرسوله بمؤكدات ثلاثة الأول: «إن»، والثاني: كون الجملة اسمية ـ وهذان لفظيان، والثالث: قوله ﴿كَمَا كُبِتَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وهذا مؤكد معنوي.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ توعد الله عز وجل المحادين له ولرسوله ﷺ بالكبت والإهانة والإذلال ثم بين في قوله ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ بأنه عز وجل قد أقام الحجة عليهم بإنزال الآيات، فلا حجة ولا عذر لهم في محادة الله ورسوله، والمخالفة والاستكبار والعناد.

والواو في قوله (وقد) حالية، و(قد) للتحقيق أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات.

و «آيات» جمع آية، والآية لغة: العلامة والدلالة.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، والمراد بها هنا الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم.

ويؤخذ من قوله (وقد أنزلنا آيات) إثبات علو الله عز وجل على خلقه لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل، فله عز وجل كمال العلو علو الذات، وعلو الصفات، كما يؤخذ من ذلك أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق.

﴿بَيِّنَٰتٍۚ﴾ صفة لـ(آيات) أي: آيات واضحات مفصلات، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ﴾ سبق الكلام عليه.

وقوله ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة لـ«عذاب» ومعنى «مهين» أي: يهينهم ويخزيهم ويذلهم لاستكبارهم عن الإيمان بالله واتباع شرعه والانقياد والخضوع له وهوان أمر الله عليهم، فجوزوا بالعذاب المهين لهوانهم على الله، والجزاء من جنس العمل.

فيجمع للكافرين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي، العذاب الحسي كما قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والخزي والذل وتحطم المعنويات، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

فهي تحطم كل شيء فيها تحطيمًا حسيًا، وتحطم القلوب تحطيمًا معنويًا، وتطلع عليها فتذلها وتهينها وصدق الله العظيم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ « يوم» ظرف زمان منصوب، متعلق بـ « مهين».

أي: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فكأنه قيل متى ذلك، فقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾.

وذلك يوم القيامة يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، كما قال عز وجل ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم، وما أعظم هذا الخبر، الذي يترتب عليه الشقاء الأبدي في نار جهنم ـ نسأل الله السلامة.

و «ما» موصولة أو مصدرية، أي:، فيخبرهم بالذي عملوه، أو بعملهم من خير وشر قولاً كان أو فعلاً.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: عده وكتبه، وضبطه وحفظه عليهم، وأحاط به كماً وكيفا، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَنَسُوهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهم قد نسوا ما عملوه في غمرة اللهو والسهو والغفلة، أشبه بحال من يستدين فما درى حتى أثقلته الديون وعجز عن الوفاء. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قدم المتعلَّق وهو قوله (على كل شيء) على المتعلَّق به وهو قوله (شهيد) لتأكيد شهادته عز وجل على كل شيء.

أي: والله على كل شيء من الأشياء كبيراً كان أو صغيراً خفياً كان أو جليًا، دقيقًا كان أو جليلاً.

(شهيد) أي: مطلع شاهد رقيب حاضر، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء ولا ينسى شيئاً كما قال عز وجل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

و«الشهيد» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل » يدل على سعة اطلاعه

عز وجل ورقابته.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ توكيد لقوله قبله ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي: فينبئهم بأعمالهم التي أحصاها عليهم لأنه عز وجل على كل شيء شهيد مطلع رقيب.

ثم أكد عز وجل اطلاعه وشهادته على كل شيء بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ الآية.

والاستفهام في قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والرؤية هنا رؤية علمية أي: ألم تعلم بما أوحى الله إليك.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ «ما» موصولة تفيد العموم، أي: أن الله يعلم كل الذي في السموات والذي في الأرض وكرر «ما» في قوله ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ دون أن يقول «يعلم ما في السموات والأرض» لتأكيد شمول علمه عز وجل كل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ﴾ «ما» نافية. قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث (ما تكون) وقرأ الباقون بالياء على التذكير (ما يكون).

﴿مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر والتناجي بينهم، أي: ما يكون من سر وتناج بين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله (نجوى) نفس المتناجين، فتكون (نجوى) صفة لموصوف محذوف تقديره: أناس نجوى و«إلا» في المواضع الثلاثة للحصر.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ قرأ يعقوب «أكثرُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب «أكثرَ» أي: ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ بعلمه وإحاطته ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ أي: في أي مكان كانوا فهو معهم يرى مكانهم ويعلم أحوالهم ويسمع سرهم ونجواهم، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأيضا فإن رسله الكرام الكاتبين يكتبون عليهم ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير[١]: « حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء».

وهذا مما يوجب على العباد مراقبة الله ـ عز وجل ـ في السر والعلن؛ لأنه ـ عز وجل ـ معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويبصر أفعالهم، ويسمع أقوالهم، والمصيبة أن أهل الضلال والابتداع نصيبهم من هذا: هو القول بالحلول والاتحاد ـ تعالى الله عن ذلك.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ثم «عاطفة، أي: ثم يخبرهم الله بالذي عملوه، أو بعملهم، من المناجاة بينهم وغير ذلك يوم القيامة، ويحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

وسُمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والمؤمنين وغيرهم، كما قال عز وجل ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ولقيام الحساب والعدل الحقيقي في ذلك اليوم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل محيط علماً بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وقد أكد عز وجل شمول علمه وإحاطته بكل شيء في هذه الآية بثلاثة مؤكدات هي: « إن»، وتقديم المتعلقين، وهو قوله (بكل شيء)، وكون الجملة اسمية.

و«عليم» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون قال موسى عليه السلام ـ لما سئل عن القرون الأولى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

---

(١) في « تفسيره» ٨/ ٦٧.

أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف علم المخلوق الضعيف.

وقد افتتح الله ـ عز وجل ـ هذه الآية بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ ثم ختمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا توكيد سعة علم الله عز وجل وشموله وعمومه.

الفوائد والعبر:

١ ـ إذلال الله ـ عز وجل ـ وإهانته للمحادين له ولرسوله المخالفين لشرعه، كما أذل وأهان المكذبين قبلهم، سنة الله في المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٢ ـ أن المحادة لله محادة لرسوله، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل . وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

٣ ـ إقامة الله ـ عز وجل ـ الحجة على الخلق بما أنزل من الآيات الشرعية البينة الواضحة.

٤ ـ إثبات علو الله على خلقه، فله ـ عز وجل ـ علو الذات وعلو الصفات.

٥ ـ إثبات أن القرآن منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق.

٦ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالعذاب الذي يهينهم ويذلهم يوم القيامة، عذاب حسي ينصب على الأجساد، وعذاب معنوي ينصب على القلوب.

٧ ـ إثبات المعاد، وبعث الله للخلائق جميعاً يوم القيامة.

٨ ـ إخبار الله ـ عز وجل ـ الكافرين، يوم القيامة بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها.

٩ ـ إحصاء الله ـ عز وجل ـ لجميع أعمال العباد وضبطه لها وإن نسوها.

١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الشهيد» وشهادته عز وجل واطلاعه على كل شيء، مما يوجب مراقبته ـ عز وجل.

١١ ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ التام وإحاطته بما في السموات وما في الأرض، وأنه عز وجل مع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره أينما كانوا. وهذه هي المعية العامة.

١٢ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «العليم» وشمول علمه لكل شيء.

١٣ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

رُوِيَ عن مجاهد[1] وغيره أن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ نزلت في اليهود نُهوا عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها.

وقال الواحدي:[2] «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك، حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الاستفهام في قوله (ألم تر) للتقرير، بمعنى: قد رأيت، وفيه معنى التعجب. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والمعنى: ألم تشاهد وتنظر إلى الذين نهوا عن النجوى. أي: إلى الذين نهاهم الله ورسوله عن النجوى، وتعلم حالهم، من اليهود والمنافقين وغيرهم.

وقال: «نهوا» ولم يقل: «نهاهم الله، أو نهاهم الله ورسوله» لتعظيم هذا النهي فكأن كلاً نهاهم عن ذلك.

و«النجوى» هي المسارَّة بين اثنين فأكثر، وهي مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٤٦٩-٤٧٠.

(٢) في «أسباب النزول» ص٢٧٥.

وقال ﷺ: « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»[1].

أي: لا يتسار اثنان دون الثالث.

وتطلق النجوى على جماعة المتناجين، فتكون مصدرا بمعنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: وإذ هم جماعة نجوى، أو متناجون، وكقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي نهوا عنه وهو النجوى.

﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة قرأ حمزة (وينتجون) بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدهما ألف وفتح الجيم (ويتناجون). أي: ويتحدثون إما سرًا فيما بينهم، وإما جهراً، حسب الأحوال والمناسبات والظروف.

(بالإثم) أي: بالذنب، وما يوجب تأثمهم بأنفسهم.

(والعدوان) أي: والعدوان على الآخرين والإضرار بهم والتعدي عليهم.

(ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. و «ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ، ومعصية الرسول ﷺ من الإثم والعدوان، كما أن الإثم والعدوان من معصية الرسول ﷺ وفي هذا التفصيل بيان أنهم أضروا بأنفسهم حيث أوقعوها في الإثم، وأضروا بالآخرين واعتدوا عليهم، وعصوا الرسول ﷺ وخالفوا أمره في ذلك كله، ولم ينتهوا عما نهوا عنه بل أصروا على ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: دخل على رسول الله ﷺ ـ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تريني قلت: وعليكم»؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾. وفي رواية أنها قالت: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال: « إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[٢].

فاليهود عليهم غضب الله إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله. فبدل أن يحيوه بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحيونه بقولهم: السام عليك، أو السام عليكم. ويقصدون بالسام الموت، فهم يدعون عليه ﷺ بالموت. بدل أن يدعوا له بالبقاء والسلامة الذي هو المعنى الحقيقي للتحية في الإسلام.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك فنزلت» يعني الآية[٣].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: معتقدين هذا القول في قلوبهم، وداخل أنفسهم.

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

«لولا» حرف تحضيض، والباء في قوله (بما) للسببية و « ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي نقول، أو بقولنا

أي: لو كان هذا نبياً حقاً (لعذبنا الله) أي: لعاجلنا الله بالعذاب والعقوبة في الدنيا (بما نقول) أي: بسبب الذي نقوله له في الباطن من التحية بما لم يحيه به الله، بقولنا: السام عليك، بدل السلام عليكم، لأن الله يعلم ما نسره، فرد الله عليهم بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي فحوى هذا الرد من الله عز وجل عليهم إرغام أنوفهم من جهتين:

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٥، وفي الأدب ٦٠٢٤، ومسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٦٩٨، وأحمد ٦/ ٣٧، ٢٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٥.

(٢) اخرجه أحمد ٢/ ١٧٠. قال الهيثمي في « مجمع الزوائد» : «إسناده جيد» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٩: « إسناد حسن ولم يخرجوه».

(٣) اخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣.

الأولى: الإشارة إلى حقيقة نبوته ﷺ، لأن الله ـ عز وجل ـ تولى الدفاع عنه.

والثانية: الوعيد والتهديد لهم، وأن الله يمهل ولا يهمل، فالعذاب ينتظرهم يوم القيامة، وهو أكبر وأشد وأبقى من عذاب الدنيا.

ومعنى (حسبهم جهنم) تكفيهم جهنم، فهي مردهم ومآلهم وفيها أعظم العذاب لهم وأشده. و «جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

(يصلونها) أي: يغمرون فيها ويقاسون حرها (فبئس المصير) «بئس» بمعنى: ساء وقبح، و «المصير» المرجع والمآل والمنقلب. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فبئس المصير النار.

والمعنى: تكفيهم جهنم عذاباً يدخلون فيها، ويغمرون في دركاتها ويقاسون حرها، فبئس المرجع والمآل النار.

ثم حذر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين ونهاهم عن مسلك اليهود والمنافقين ومن شابههم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عليه، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[1].

﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ أي: إذا حصل بينكم مناجاة أو أردتم التناجي بينكم سراً، أو جهراً.

﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: فلا تتناجوا بالإثم وهو الذنب الذي يؤثمكم بأنفسكم و (العدوان) على غيركم (ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. قال ابن كثير[2]: «كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين».

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي: وتحدثوا فيما بينكم سواء كان ذلك سراً أو جهراً بالبر والتقوى.

و «البر» في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾

---

(١) سبق تخريجه في مطلع سورة الحجرات.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٦٩.

الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ « البر حُسن الخلق»[1]، « البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»[2].

والتقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

والمراد بالبر في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه»[3].

وذلك لأن البر والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، ونحو ذلك، فإذا جاءت كلمة « البر» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات.

وكذلك إذا جاءت كلمة « التقوى» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ٨].

ويؤيد التداخل بين البر والتقوى قول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [الآية: ١٨٩].

فنهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحرم ذلك عليهم، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: واتقوا الله في جميع أموركم من المناجاة وغيرها بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: الذي إليه حشركم وجمعكم، فيحاسبكم على أعمالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ مع قرن ذلك بتذكير العباد بأنهم إليه يحشرون ما يوجب المسارعة إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ حيث إليه المرد والحشر والمآل، وهو للجميع بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٨/ ٥٢-٥٣. وانظر « جامع العلوم والحكم» صـ ٣٠٦.

ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

نهى الله عز وجل في الآية السابقة المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، ثم بين عز وجل أن النجوى المنهي عنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا، وبيَّن أن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله عز وجل، وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه.

قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة والمراد بـ (النجوى) المسارة.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: من عمله وتسويله ووساوسه وهمزاته وتزيينه ذلك للمتناجين من المنافقين وغيرهم.

﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يحزن الذين آمنوا، أو لكي يحزن الذين آمنوا، أي: يصيبهم بالحزن ويسوءهم حيث يتوهم من يرى المتناجين أنهم يقصدونه بسوء، ففيها أذية للآخرين لحزنهم بذلك، وحملهم على سوء الظن بالمتناجين، ووضع المتناجين أنفسهم موضع الريبة والاتهام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه» وفي رواية «دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه»[1].

﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: وليس بضارهم التناجي شيئاً، و«شيئاً» نكرة في سياق النفي فتعم نفي كل شيء كبيراً كان أو صغيراً، كثيراً كان أو قليلاً.

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ «إلا» أداة استثناء.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

أي: وليس بضارهم التناجي بين المنافقين وغيرهم (شيئاً) مهما كان إلا بإذن الله -

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان ٦٢٨٨، ومسلم في السلام ٢١٨٣، وأبو داود في الأدب ٤٨٥١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧٦

عز وجل ـ وتقديره الكوني، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وهذا مما يقوي قلب المؤمن وثقته بربه ـ عز وجل ـ، ولهذا قال بعده: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والتوكل على الله: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر ـ مع تمام الثقة بالله، وسكون القلب إليه وحده دون غيره.

وقدم المتعلق وهو قوله (على الله) لبيان أن التوكل والاعتماد يجب أن يكون على الله وحده دون سواه.

فتأمل أخي الكريم سمو مبادئ الإسلام ورفعتها واحذر من مسلك النجوى والمسارة في الكلام أمام الآخرين، واعلم أنه من عمل الشيطان لما يسببه ذلك من إدخال الحزن في قلوبهم، ووقوعهم في إساءة الظن فيك، ووضعك نفسك موضع الشك والريبة والاتهام، وفي الأثر «رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه»، أي: فلم يضعها موضع الاتهام، فما أحلى وأحرى أن يبتعد المرء عن كل ما من شأنه أن يجعله موضع الريبة والشك، وهذا من حق نفسه وواجبها عليه، وقد قيل:

يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

وإن رأيت أخي الكريم من يسلك هذا المسلك فذكره بأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحزنك ذلك في نفسك، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك وفوِّض أمرك إلى الله واعتمد عليه يكفك من كل سوء.

الفوائد والعبر:

١ ـ النهي عن النجوى والمسارة بين اثنين أو بين فريقين دون الثالث مما يجعل الثالث يسيء الظن بالمتناجين ويظن أنه المقصود.

٢ ـ التعجب من حال الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إليها من اليهود والمنافقين وغيرهم.

٣ ـ تناجي اليهود والمنافقين وغيرهم من الكفار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ كيداً منهم للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين.

٤ ـ مخادعة المنافقين واليهود ـ لعنهم الله ـ للرسول ﷺ وتحيتهم له بما لم يحيه به الله، بل بالدعاء عليه بالموت.

٥ ـ انخداع اليهود ـ المغضوب عليهم والمنافقين ـ بعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب تحيتهم للرسول ﷺ بالدعاء عليه في الباطن.

٦ ـ دفاع الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ، والوعيد الشديد لليهود والمنافقين بأن في جهنم كفاية لهم في العذاب وبئس المصير لهم، وأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

٧ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٨ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٩ ـ نهي المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى.

١٠ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ والحذر من التشبه باليهود والمنافقين.

١١ ـ إثبات المعاد وحشر العباد إلى الله والحساب والجزاء.

١٢ ـ التحذير من النجوى وأنها من عمل الشيطان وتزيينه لأجل أن يحزن الذين آمنوا.

١٣ ـ ينبغي للمؤمنين عدم الاكتراث بالمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم فإنه لن يصيبهم إلا ما أذن الله به كونا وقدره عليهم.

١٤ ـ وجوب الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، وأن ذلك من شرط الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾.

رُوي عن قتادة وابن زيد ومقاتل وغيرهم أن الصحابة رضي الله عنهم ـ إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض[١].

قوله ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾.

« إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «قيل» فعل الشرط (فافسحوا) جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية.

(تفسحوا) أي: توسعوا.

(في المجالس) قرأ عاصم (في المجالس) على الجمع وقرأ الباقون (في المجلس) على الإفراد.

(فافسحوا) أي: فتوسعوا.

والمعنى: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس فتوسعوا فيها ليجد القادم مكاناً للجلوس، وهو شامل لمجلس الرسول ﷺ وغيره من مجالس العلم والقتال وغيرها.

وهو أدب رفيع من آداب الإسلام يؤلف بين القلوب ويجلب المحبة ويحقق معنى الأخوة.

ولك أن تتصور مدى غبطة من فسح له إخوانه للجلوس بينهم ومدى محبته لهم يود أن يفتح لهم صدره. وفي المقابل لك أن تتصور من جاء ليجلس فقوبل بالأنانية وحب الذات ولم يفسح له، ما مدى كراهته لهم.

وفي قوله (إذا قيل لكم) بهذه الصيغة دلالة على أنه ينبغي امتثال ما جاء في الآية من الأمر بالتفسح أياً كان القائل، فلا يلزم أن يكون القائل ذا مكانة، بل يجب التفسح لكل من طلب ذلك، ولكل من يريد الجلوس، ما أمكن ذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا »[٢].

---

(١) اخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري في « جامع البيان» ٢٢/٤٧٧-٤٧٨، وأخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم مطولاً في «تفسيره» ١٠/٣٣٤٣ ـ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في السلام – تحريم إقامة المسلم من موضعه المباح الذي سبق إليه ٢١٧٧.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»[٣].

﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: يوسع الله لكم، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما قال ـ عز وجل ـ ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ولم يقل: «يفسح الله لكم في المجالس» ليشمل هذا الوعد من الله ـ عز وجل ـ الفسحة والتوسعة في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم وأموالهم وصدورهم، وفي منازلهم في الجنة؛ وفي كل شيء، فلله الفضل والمنة ـ يعطي الجزيل على القليل.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم بضم الشين في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرها.

والنشوز لغة الارتفاع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز، ونشاز، ومنه يقال للمرأة المرتفعة على زوجها المتعالية عليه: « ناشز» وكذلك يقال للرجل إذا تعالى وارتفع على زوجته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والمعنى: وإذا قيل ارتفعوا وانهضوا من مجالسكم فارتفعوا وانهضوا منها سواء كان النهوض لقتال عدو، أو لصلاة، أو لأي عمل خيري ، أو لانتهاء المجلس، أو ليجلس من جاءت نوبته في المجلس إذ قد يكون المجلس صغيراً، والمصلحة تستدعي جلوس القادمين ونهوض الجالسين وارتفاعهم فيكون الجلوس فيه بالتناوب ليحصل كل على نوبته ويأخذ حاجته، بل إن هذا التناوب ينبغي أن يكون في المسجد إذا كان صغيراً لا يتسع أن يصلي فيه

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٨، ٤٣٨، ٥٢٣.
(٢) أخرجه الشافعي في « الأم» ١/ ١٨١، ، وفي مسنده انظر: مسند الشافعي على الأم ٦/ ١٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٥، والترمذي في الأدب ٢٧٥٢.

الناس جماعة واحدة، بحيث يصلي فيه جماعة، ثم يخرجون ثم يصلي من بعدهم وهكذا.

وليس معنى ذلك أن يقام الإنسان من مجلسه ويجلس فيه، فهذا لا يجوز قال ﷺ: «لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»[١]. بل قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به»[٢].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه[٣].

قال ابن كثير[٤]: «وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ ـ كان يجلس حيث انتهى به المجلس. ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه ـ غالباً ـ عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك. كما في حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ـ ثلاثاً، وإياكم وهيشات الأسواق »[٥].

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه. وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة».

أما القيام للقادم فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من أجازه محتجاً بقوله ﷺ للمسلمين لما أقبل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه في قصة حكمه في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»[٦].

ومن أهل العلم من قال لا يجوز ذلك لقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»[٧].

ومن أهل العلم من فصَّل في ذلك فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً أمر المسلمين بالقيام له، ليكون أنفذ لحكمه ـ والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ـ إذا قام من مجلسه ثم عاد ٢١٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها ٤٣٢، وأبو داود في الصلاة ٦٧٤، والترمذي في الصلاة ٢٢٨.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٢٢٩، والترمذي في الأدب ٢٧٥٥- من حديث معاوية رضي الله عنه.

قالوا: وأما اتخاذ ذلك ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن: «أنه لم يكن شخص أحب إليهم ـ يعني الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من رسول الله ﷺ ـ وكانوا إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهيته لذلك»(١).

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المنع من ذلك إذا اتخذ ذلك عادة على سبيل التعظيم ـ أما إذا كان القيام لأجل الترحيب بالقادم والسلام عليه ومصافحته ومعانقته، فلا إشكال في هذا؛ لأن هذا مما يدخل المحبة والسرور والألفة بين المسلمين، وهذا أمر مطلوب شرعاً، إذ لا يجوز البرود والتبلد حينما يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، بل ينبغي إشعار كل منهما الآخر بحرارة اللقاء وبخالص الود والمحبة، وقطع الطريق أمام منافذ الشيطان الذي يسعى جاهداً لبث أسباب الفرقة والجفاء بين المسلمين، ولهذا شرع الإسلام السلام تحية الإسلام، وشرع المصافحة، وأمر بالهدية، والإحسان ونحو ذلك كل ذلك لترسيخ مبادئ الأخوة الإيمانية بين المسلمين.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾. كسرت العين من الفعل «يرفع» لالتقاء الساكنين.

أي: يرفع الله ويعلي مكانة الذين آمنوا منكم وأهل العلم درجات، أي: منازل ومراتب حسب قوة إيمانهم، وحسب علمهم وعملهم بما علموا.

والمناسبة واضحة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وآداب المجالس من وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يقول أحدهم للآخر: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وهي رياض الجنة، كما قال ـ ﷺ ـ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَق الذكر**»(٢).

وقال ﷺ: «**ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا أنزل الله عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٥٤ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٩ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، وأبو داود وفي الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومر ثلاثة نفر بمجلس النبي ﷺ فوجد أحدهم فرجة فجلس، وجلس أحدهم خلف المجلس، وأعرض الثالث: فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخبر النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»[1].

الوجه الثاني من أوجه المناسبة بين أول الآية وآخرها أن التأدب بآداب المجالس من التفسح والارتفاع عند الحاجة، وغير ذلك إنما هو من صفات أهل الإيمان والعلم الذين وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، والذين يعلمون فضل هذه الآداب، وأنهم يؤجرون عليها.

الوجه الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانتهم بحيث تطيب أنفس الجالسين بالتفسح لهم وتقديمهم لإيمانهم وعلمهم وقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»[2].

لكن لا ينبغي أن يقام من سبق من مجلسه ليجلس فيه غيره.

قوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي: يرفع الله الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم ظاهرًا وباطنًا.

والمعنى: أن الله عز وجل يعلي منازلهم، ويرفع قدرهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنة، فهم أكرم الناس وأعزهم عند الله عز وجل ـ وعند خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ دلالة على أن المؤمن في حاجة دائماً وفي كل حال إلى

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦٦، ومسلم في السلام ٢١٧٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٢٤ ـ من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٢ – من حديث عائشة رضي الله عنها

الإيمان؛ توفيقاً من الله له، وزيادة منه، وثباتاً عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكما في قول المؤمنين المصلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ويرفع الله الذين جمعوا بين الإيمان والعلم، فيعلي منازلهم، ويرفع قدرهم، ويعلي شأنهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنات و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: منازل ومراتب، ونكرت للتعظيم والتفخيم، أي: منازل ومراتب عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعلمها إلا الله عز وجل الذي منحها لهم.

قال ابن القيم [1]: «واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً».

عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال: «تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات» [2].

فيرفع الله عز وجل الذين آمنوا منازل ومراتب عالية، ويرفع الذين جمعوا بين الإيمان والعلم منازل ومراتب أعلى من ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [3].

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.
(٣) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[1].

وعن مطرف بن عبد الله قال: «إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بوناً بعيداً. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً لله عن محارمه»[2].

قال علي ـ رضي الله عنه:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
فعش بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الآخر:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الشافعي[3] رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً ... كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال الشافعي أيضاً[4]:

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظَّم أمره القوم الكرام
ويتَّبعونه في كل حال ... كراعي الضأن تتبعه السَّوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ـ فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٨١٧، وابن ماجه في المقدمة ٢١٨، وأحمد ١/ ٣٥.
(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٠.
(٣) انظر «ديوانه» ص٩٩.
(٤) انظر «ديوانه» ص١٠٥.

وقال أيضاً [١]:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه	فكبر عليه أربعاً لو فاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى	إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

قال ابن تيمية[٢] في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ﴾: «خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد الله بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم: «بالعلم».

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم، وأرفع قدراً في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع، وكذلك ترى كثيراً ممن يلبس الصوف ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس.. وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم

---

(١) انظر «ديوانه» ص٣٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ٥-٧.

نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال ـ مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف ـ هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل بـ « أأنذرتهم» وضم الميم من « عليهم» ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق، حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره، وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى».

قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: والله ـ عز وجل ـ بعملكم، أو بالذي تعملونه ذو خبرة تامة واطلاع وعلم، لا تخفى عليه خافية وسيجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر :

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان لتكريمهم وتشريفهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله نقص في الإيمان.

٢- الحث على التفسح والتوسع في المجالس، ويتأكد أو يجب إذا طلب ذلك من الجالسين.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، فمن تفسحوا وتوسعوا ليجلس إخوانهم القادمون فسح الله لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأرزاقهم وصدروهم ومنازلهم في الجنة وغير ذلك.

٤- الحث على الارتفاع والقيام من المجالس إذا طلب ذلك، ويتأكد ذلك أو يجب حسب الحاجة.

٥- سمو آداب الإسلام وحرصه على ما يؤلف القلوب ويحفظها من الضغائن والأنانية.

٦- علو منازل المؤمنين ورفعة درجاتهم وقدرهم في الدنيا والآخرة.

٧- فضل أهل العلم وعلو مراتبهم وقدرهم على غيرهم في الدنيا والآخرة.

٨- إثبات اسم الله - عز وجل - «الخبير» وخبرته واطلاعه وعلمه بأعمال العباد وغيرها، وفيه وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

توقيراً واحتراماً وتعظيماً للرسول ﷺ وتخفيفا عليه، وحفاظاً على وقته وتوفيراً له الذي هو للأمة كلها أمر الله عز وجل بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ـ ﷺ ـ

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾: «وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام..»[1].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي الرسول ﷺ، أي: يسارَّه فيما بينه وبينه.

﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: فادفعوا أمام وقبيل نجواكم صدقة تتصدقون بها على المساكين والفقراء، فمعنى بين يدي الشيء: أمامه وقُبيله وقدامه.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ الإشارة للمصدر المأخوذ من قوله (فقدموا) أي: تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ (خير لكم وأطهر) من عدمه.

ومعنى ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: أن فيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، والطهارة والتزكية لقلوبكم وأعمالكم من الإثم، ومن ذلك أن تكون المناجاة عند الحاجة.

قال ابن كثير[2]: « أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام».

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: « لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ قال لي النبي ﷺ: « ما ترى دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: « نصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «ما ترى»؟ قلت: شعيرة. فقال النبي ﷺ: «إنك زهيد» قال علي: فبي خفف عن هذه الأمة»[3].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٧٥.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المجادلة ٣٣٠٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٤-، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٤، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص ٤٧٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال الترمذي: «قوله: شعيرة» يعني وزن شعيرة من ذهب».

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ أي: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به وعجزتم عن ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» من أسماء الله عز وجل ـ يدل «الغفور» على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة. ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل، ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة.

والمعنى: فإن الله غفور رحيم لمن لم يجد الصدقة فيغفر له ويتجاوز عنه برحمته بحيث يجوز له مناجاة الرسول بدون الصدقة، لأن الله عز وجل ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

الهمزة للاستفهام التقريري، أي: أخفتم وخشيتم الفاقة والفقر من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة، وثقل عليكم ذلك، وخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإذ لم تفعلوا ما أمركم الله به من تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ـ وامتنعتم من المناجاة خوف الصدقة، أو ناجيتموه ولم تقدموا الصدقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ـ عليه السلام ـ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فوسع الله عليهم»[1].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ـ ﷺ ـ تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية»[١].

وعن مجاهد قال: «نهوا عن مناجاة النبي ـ ﷺ ـ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي ابن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ، فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة»[٢].

وعن سلمة بن كُهيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: « أول من عمل بها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم نسخت»[٣].

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة من الله ـ عز وجل ـ على عباده معناها: توفيقهم للتوبة، وقبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومعنى قوله ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وتاب الله عليكم في عدم تقديمكم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ ـ وإشفاقكم من ذلك فتاب عليكم وعفا عنكم ونسخ ذلك ورفعه عنكم.

فنسخ الله عز وجل وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لمّا أشفقوا منها، ولم يفعلوها برفع وجوب ذلك، فأباح لهم مناجاته ـ ﷺ ـ بدون تقديم الصدقة توبة من الله عز وجل ـ عليهم.

وتعد هذه الواقعة من أوضح وقائع النسخ في القرآن الكريم وأصحها.والنسخ فيها إلى غير بدل.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأقيموا الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لتكون صلاة تامة كاملة، وهذا هو السر في التعبير بالأمر بإقامة الصلاة، دون أن يقول: « صلوا» والصلاة: لغة الدعاء، وشرعاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس وغيرها من النوافل.

(وآتوا الزكاة) معطوف على ما قبله، أي: وأعطوا الزكاة وادفعوها لمستحقيها.

وقدم الصلاة لأنها عمود الإسلام وأعظم العبادات البدنية بعد الشهادتين، وعطف عليها الزكاة لأنها أعظم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٣.
(٢) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٣.
(٣) أخرجه النحاس في « الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٣.

وثمانين موضعاً، فخصهما بالذكر لعظم مكانتهما في الإسلام.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمر أولاً بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف عليهما بالأمر بطاعة الله ورسوله، وذلك لبيان عظم منزلة الصلاة والزكاة، وهما من طاعة الله ورسوله.

والطاعة: فعل المأمور واجتناب المحظور، أي: أطيعوا الله ورسوله في فعل ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل - بالواو التي تقتضي التشريك، لأن طاعة الرسول - ﷺ - من طاعة الله، كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بعد توبة الله عليهم في إحجامهم عن تقديم الصدقة بين يدي المناجاة إشعار بوجوب الإكثار من العمل الصالح بعد التوبة عليهم شكراً لله على ذلك التخفيف، وأن المطلوب من العبد الاستمرار على طاعة الله عز وجل حتى يلقى الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل و «الخبير» هو المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

(بما تعملون) أي: بالذي تعملون، أو بعملكم، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله، ووعيد لمن خالف ذلك لأن مقتضى خبرته عز وجل أن يحاسب الخلائق، ويجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف به، وعلى امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف.

٢ ـ إيجاب تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ومسارته تخفيفاً عليه ﷺ وحفاظاً على وقته ومشاغله في الدعوة وفي الأمة. وهكذا ينبغي تقدير أوقات ذوي

المسؤوليات الكبيرة في الأمة.

٣ ـ في إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ خير للمؤمنين وتزكية لقلوبهم وأعمالهم بحيث تكون مناجاتهم عند الحاجة.

٤ ـ أن إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ على الواجد أما من لم يجد فلا شيء عليه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهذا قال ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «الغفور» و «الرحيم» وصفة المغفرة والرحمة الواسعتين، لهذا رحم وغفر لمن لم يجد الصدقة وأباح له مناجاة الرسول ﷺ بدونها.

٦ ـ إشفاق المؤمنين وخشيتهم من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة وثقلها عليهم.

٧ ـ توبة الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين ومغفرته ورحمته لهم ونسخ وجوب تقديم الصدقة عليهم بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لما شق عليهم ذلك ولم يناجوه خشية تقديم الصدقة.

٨ ـ وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ففي ذلك تكفير السيئات، ورفعة الدرجات.

٩ ـ عظم مكانة الصلاة والزكاة بين الطاعات لهذا خصهما بالذكر.

١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل «الخبير» وخبرته ـ عز وجل ـ التامة، وعلمه الواسع، وإحاطته بأعمال العباد، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للمكذبين.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ـ ﷺ ـ كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم ـ قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وفي رواية له: «فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»[1].

هذه الآيات في فضح المنافقين والإنكار عليهم في موالاتهم اليهود والمشركين في الباطن، وهم في حقيقة الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين.

قوله ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ يعني المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، فهم المغضوب عليهم كما قال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٩ والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٧، والحاكم ٢/ ٤٨٢- وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٧٨: «إسناد جيد ولم يخرجوه».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ومعنى: ﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: جعلوهم أولياء يوالونهم ويمالئونهم في الباطن قال الطبري[1]: «ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم، وهم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم».

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: أن هؤلاء المنافقين في الحقيقة ليسوا منكم أيها المؤمنون، ولا منهم، أي: ولا من اليهود والمشركين، بل هم كما قال الله عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: ويحلف هؤلاء المنافقون، (على الكذب) أي: كذباً، وعلى أمور كاذبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

قال ابن كثير[2]: «يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولاسيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك».

وهذا ديدن المنافقين الحلف وهم كاذبون، كما قال عز وجل في سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

وقال تعالى ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/٤٨٧.

(٢) في «تفسيره» ٨/٧٧.

﴿...﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

(أَعَدَّ): هيأ وجهز وأرصد (لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) أي: عذاباً شديداً من حيث كيفيته وكميته حسيا ومعنوياً، لا يعلم مدى شدته إلا من وصفه بهذا، وهو الله عز وجل شديد العقاب، وذلك بسبب نفاقهم وموالاتهم الكافرين، عذاباً عاجلاً في الدنيا من القلق والحيرة والتذبذب والشقاء النفسي، كما قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم دائماً في خوف وقلق بسبب نفاقهم وكونهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مع ما يصيبهم من المصائب في الأنفس والأموال وغير ذلك.

وأعد لهم عذابا شديداً في الآخرة في النار فهم أشد أهل النار عذاباً كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، و «ساء» بمعنى قبح، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: ساء عملهم، أو ساء الذي كانوا يعملون.

والمعنى: أن الله عز وجل ـ أعد لهم العذاب الشديد لسوء أعمالهم وقبحها، أو بسبب أعمالهم السيئة القبيحة وهي نفاقهم وموالاتهم اليهود والمشركين ونصحهم لهم، ومعاداتهم المؤمنين وغشهم لهم، فليس هناك عمل وضيع أسوأ من عمل المنافقين وصنيعهم ـ عياذا بالله من ذلك.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا كقوله في سورة المنافقين ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢]

أي: جعلوا حلفهم وقاية وستراً لأنفسهم وأموالهم وذراريهم،فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر،وأقسموا الأيمان المغلظة الكاذبة أنهم مع المؤمنين، وكلما افتضح شيء من أمرهم اتقوا بالأيمان الكاذبة، كما قال عز وجل عنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن سبيل الله وطريقه وهو الإيمان بالله ظاهراً وباطناً، واكتفوا بدعوى الإيمان ظاهراً، وتوكيد ذلك بالأيمان الكاذبة.

وصدوا غيرهم عن سبيل الله حيث اغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، فصدقهم وقلدهم واطمأن إليهم فصدوه عن الحق.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: فلهم بسبب جعلهم الأيمان الكاذبة وقاية لهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم (عذاب مهين) أي: يهينهم ويذلهم، فهو عذاب شديد للأجسام، وعذاب مهين للقلوب بالذل والهوان والتبكيت والتوبيخ، كما قال عز وجل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى مخاطباً أهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فالعذابان الحسي والمعنوي متلازمان، والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم﴾ أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولو كثرت فيفتدوا بها، ولا أولادهم وإن كثروا لينتصروا بهم (من الله شيئاً) أي: من عذاب الله عز وجل ـ وعقابه شيئاً إذا نزل بهم.

و«شيئاً» نكرة في سياق النفي تعم أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، مهما قل أو صغر.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك المنافقون الذين يتولون اليهود ويحلفون الأيمان الكاذبة ويصدون بها عن سبيل الله وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم ولمصيرهم.

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهل النار وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي: هم في النار مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وذلك لكفرهم، ولأن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها وأهلها، كما دل الكتاب والسنة على ذلك.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ «يوم» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بفعل مقدر، أي: اذكر يوم، أي: يوم القيامة حين يبعثهم الله جميعاً، أي: يخرجهم من قبورهم جميعاً، بعد أن يعيد الحياة فيهم، ويحشرهم جميعاً في موقف الحساب.

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: فيحلفون ويقسمون له أنهم على الحق والإيمان والاستقامة.

﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي: كما كانوا في الدنيا يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم معكم، وتُجرون عليهم الأحكام الظاهرة.

فحيث اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم في الدنيا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم صار هذا سجية لهم وديدنا وعادة حتى بعد بعثهم بعد الموت أمام من لا تخفى عليه خافية. قال ابن كثير[1]: «لأن من عاش على شيء مات وبعث عليه».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يظنون أنهم بهذا الحلف له عز وجل على شيء من الأمر، وأن هذا الحلف سينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، كما كانوا في الدنيا يتخذون الأيمان وقاية لهم، ولا شك أن هذا من عمى البصائر وإلا فكيف يحلفون للخالق سبحانه العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، وهم كاذبون ويظنون أن ذلك ينفعهم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إنهم هم الكاذبون في حسبانهم وظنهم أنهم على شيء، وهم الكاذبون في أيمانهم.

وقد أكد كذبهم في حسبانهم وأيمانهم بعدة مؤكدات وهي: « ألا» التي هي للتنبيه و«إنّ»، وضمير الفصل « هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين

أي: ألا إنهم هم الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وحال هؤلاء، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استحوذ: غلب وسيطر واستولى على قلوبهم وأعمالهم.

والشيطان: إبليس لعنه الله وجنوده، مشتق من « شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل خير.

وكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى فهو شيطان، من الجن والإنس والحيوان قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ «الكلب الأسود شيطان»[2].

﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي: جعلهم بسبب استحواذه عليهم ينسون ذكر الله ـ عز وجل ـ الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله عز وجل ـ حقاً إخلاصاً له عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٥١٠، وأبو داود في الصلاة ٧٠٢، والنسائي في القبلة ٧٥٠، والترمذي في الصلاة ٣٣٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٥٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الحرام، وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ودعاء الله إلى غير ذلك.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ أي: أنصاره وأتباعه وجنده وأعوانه على الشر.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه و«الخاسرون» جمع خاسر، والخسر، والخسران: ضياع رأس المال مع الربح، وقد أكد عز وجل خسرانهم في هذه الجملة بعدة مؤكدات وهي «ألا» التي للتنبيه، و«إنّ» وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

أي: المغبونون في صفقتهم، الذين بلغوا الغاية في الخسران، فخسروا أغلى ما لديهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المنافقين والتعجيب منهم في موالاتهم اليهود المغضوب عليهم.

٢ ـ تذبذب المنافقين فليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، وحلفهم على الكذب وهم يعلمون كذبهم.

٣ ـ اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم.

٤ ـ الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الشديد، عذاباً حسياً في الدرك الأسفل من النار وملازمتها والخلود فيها، وعذاباً معنوياً يهينهم ويذلهم لسوء عملهم وشدة كفرهم، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً.

٥ ـ بعث الله ـ عز وجل ـ الناس جميعاً من قبورهم للحساب والجزاء.

٦ ـ عمى بصائر المنافقين وأن من مات على شيء بعث عليه فحيث كانوا في الدنيا يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية لهم ولأموالهم صار ذلك سجية لهم ففي عرصات القيامة يحلفون لله كما كانوا يحلفون في الدنيا ظناً منهم أن ذلك ينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، وتأكيد كذبهم في حلفهم وحسبانهم.

٧ ـ غلبة الشيطان على المنافقين وإنساؤه لهم ذكر الله وكونهم من أنصاره وجنده الخاسرين المغبونين.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ التشديد في ترك الجماعة ٥٤٧، والنسائي في الإمامة ٨٤٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال المنافقين في موالاتهم اليهود والمشركين واتخاذهم الأيمان وقاية لهم، وغلبة الشيطان عليهم، وما أعد لهم من العذاب الشديد المهين، وما ينتهون إليه من الخسران المبين، ثم أتبع ذلك بالوعيد بالإذلال لجميع الكافرين المحادين لله ورسوله من المنافقين واليهود والمشركين وغيرهم، وفي هذا توكيد لوعيدهم في أول السورة.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

أي: إن الذين يكونون في حد وجانب وشق مناوئ ومضاد ومخالف لله ورسوله ويشاقون ويعادون الله ورسوله.

قال ابن كثير[1]: «يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: أولئك المحادون لله ورسوله (في الأذلين) أي: في عداد المهانين الأشقياء المغلوبين المبعدين الذين قضي عليهم بالذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في أول السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [الآية: ٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: قضى الله ـ عز وجل ـ وحكم وكتب في كتابه الأول في الأزل في اللوح المحفوظ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2].

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: لتكونن الغلبة لي أنا ورسلي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٥٥. وقال «حديث غريب».

وقال ﷺ: «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»[1] قال الحسن: «أبى الله إلا أن تكون الذلة والصغار على من خالف أمره».

قال ابن كثير[2]: «أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين... وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة».

وقال ابن القيم[3]: « وقوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقيب قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا ـ وذلك ـ إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «أن» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها، وهذا كالتعليل لما قبله، أي: إن الله كتب الغلبة له ولرسله لأنه القوي العزيز.

و«القوي» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على أنه سبحانه ذو القوة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

و«العزيز» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، مشتق من العزة، يدل على أن الله ـ عز وجل ـ ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ، فله ـ عز وجل ـ العزة بمعانيها الثلاثة: عزة الامتناع فهو ـ عز وجل ـ ممتنع عن كل نقص وعيب، ومن ذلك يقال للأرض الصلبة «عزاز» لقوتها وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة. والثاني: عزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ما قيل في الرماح بلفظ: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» انظر «فتح الباري» ٦/٩٨. وأخرجه أحمد عن ابن عمر موصولا ٢/٥٠، ٩٢.

(٢) في « تفسيره» ٨/٧٩.

(٣) انظر: « بدائع التفسير» ٤/٤١٩.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثالث: عزة القوة.

قال ابن القيم[١]:

وهـو العزيـز فـلا يـرام جنابـه	أنـى يـرام جنـاب ذي السلطان
وهـو العزيـز القـاهر الغـلاب لم	يغلبـه شـيء هـذه صـفتان
وهـو العزيـز بقـوة هـي وصـفه	فـالعز حينئـذ ثـلاث معـان
وهـي الـتي كملـت لـه سـبحانه	مـن كـل وجـه عـادم النقصـان

ويحسن في مثل هذا الموضع أن يحمل العزيز على عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، لذكر اسمه ـ عز وجل ـ «القوي» قبله.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل موالاة المنافقين لليهود، وما أعد لهم من العذاب الشديد والمهين والخسران المبين، وأنه عز وجل قضى بالذل والهوان على الذين يحادونه ورسوله، وكتب الغلبة له ولرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أتبع ذلك ببيان أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله من اليهود والمشركين وغيرهم، ولا يتصور وجود هذا، لأن الإنسان إما مواد لله ورسوله ومعاد لمن حاد الله ورسوله، وهذا هو المؤمن، وإما مواد لمن حاد الله ورسوله معاد لله رسوله والمؤمنين وهذا هو الكافر والمنافق.

سبب النزول: رُوي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال:« أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قَتَل أباه يوم بدر».

---

(١) انظر «النونية» ص ١٤٧.

وقيل: نزل قوله (ولو كانوا آباءهم) في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ونزل قوله (أو أبناءهم) في الصديق همَّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ونزل قوله (أو إخوانهم) في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ونزل (أو عشيرتهم) في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضا، وفي حمزة بن الحارث وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة[١].

قال ابن كثير[٢]: «وقلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهو بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.. القصة بكمالها».

قوله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

«لا» نافية والقوم: الجماعة من الناس رجالاً ونساء، (يؤمنون بالله) أي: يصدقون بوجود الله عز وجل ـ وربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقادون لشرعه ظاهراً و باطناً.

(واليوم الآخر) أي: ويؤمنون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة وهو آخر مراحل الإنسان الأربع فمرحلة في بطن أمه، ثم مرحلة في الدنيا، ثم مرحلة في البرزخ، ثم مرحلة يوم القيامة.

وكثيراً ما يقرن ـ عز وجل ـ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم حافز على العمل، لأن في هذا اليوم يكون الحساب والجزاء على الأعمال وفيه الأهوال العظام، ولهذا رُويَ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»

يعني لتكالب الناس على المعاصي والشرور وربما أكل بعضهم بعضًا.

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المودة: المحبة، أي: يحبون من حاد الله ورسوله.

أي: من عادى الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ورسوله من اليهود والمشركين.

والمعنى: لا يمكن أن يوجد ولا يتصور اجتماع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله، فهذان أمران متناقضان متنافيان، فالجمع بينهما ضرب من

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» صـ ٢٧٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

المستحيل، كما قال ابن القيم[1] في كلامه على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الآية: ٤]: «فأنت تجد في هذه اللفظة أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره».

فلا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر - حقاً - ومع ذلك يوادون من حاد الله ورسوله لأن موادة من حاد الله ورسوله تنفي صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان[2]

فالإيمان بالله واليوم الآخر يمنع صاحبه من موادة الكافرين، لأن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله والمؤمنين، وبغض من حاد الله ورسوله من المنافقين واليهود والكافرين ونحوهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان أولئك المحادون لله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنهم لا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٤١٩.

(٢) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

يوادونهم لمحادتهم الله ورسوله وكفرهم، كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآباء هم الأب القريب والأجداد وإن علوا من أي جهة كانوا والأبناء: هم أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا، والإخوان: إخوة الرجل أشقاء أو لأب أو لأم، و«العشيرة» القبيلة من العصبة من الأعمام وأبنائهم وأبناء أبناءهم، وإن نزلوا، ونحوهم.

وهذا محك عظيم فكم من مدع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكم من مدع محبة الله ـ عز وجل ـ ورسوله ـ لكنه إذا جاء شأن القرابة والعشيرة ترك العدل والإنصاف محاباة للقريب وانتصاراً له، حتى ولو كان ظالماً عاصياً محاداً لله ورسوله. وقد قال ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف إذا كان ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[1].

فالواجب على المؤمن حقاً بغض من حاد الله ورسوله ومعاداتهم، ولو كانوا أقرب الأقربين إليه، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم. وهذه حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[3].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٢٥، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير انظر: « تيسير العزيز الحميد» ص٤٧٩.

﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

الإشارة (أولئك) للذين آمنوا بالله واليوم الآخر الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس إليهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تعظيما ورفعة لشأنهم.

﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أدخله في قلوبهم وثبته فيها.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: وأمدهم وقواهم بروح منه، أي: بوحيه ونوره ومدده.

قال الطبري[1]: « وقواهم ببرهان منه ونور وهدى».

وقال السعدي[2]: «وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني»،

فاستمروا على الإيمان باطنا، وظهرت آثاره على جوارحهم وأعمالهم الظاهرة لأن الله أمدهم بروح منه، فهم يسيرون في هذه الحياة على نور من الله عز وجل قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً واجعل لي نوراً»[3].

فمن وفقه الله عز وجل وجعل الإيمان في قلبه وثبته عليه وأمده وقواه بروح منه، ونوَّر بصيرته فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل عن موادة من حاد الله ورسوله ومن أنواع الشرور كلها ـ بإذن الله عز وجل.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وصف الله ـ عز وجل ـ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله، وأنه عز وجل جعل الإيمان في قلوبهم وثبته فيها وأمدهم وقواهم بروح منه

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٤.

(٢) في « تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٢.

(٣) اخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

فسعدوا في حياتهم بالاستقامة على طاعة الله -عز وجل ـ، ثم ذكر ما أعد لهم في الآخرة في الجنة من ألوان النعيم.

قوله ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله ـ عز وجل ـ لسكنى أوليائه المتقين وحزبه المفلحين في دار كرامته دار السلام، التي فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات، أي: تجري من تحت أشجار هذه الجنات ومساكنها وغرفها الأنهار، يشربون منها ويصرّفونها حيث شاؤوا ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله عز وجل ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها بإجماع المسلمين.

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله عنهم لإيمانهم وعملهم الصالح فوفقهم للحق والثبات عليه، وأثابهم على ذلك بالجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الهداية والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير[2]: «وفي قوله ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم».

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

كما قال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[1].

ورضى الله عنهم من أعظم النعيم المعنوي الذي تقر به عيونهم فهم ضيوف على أكرم الأكرمين وقد رضي ـ عز وجل ـ عنهم ورضوا عنه، فأعظم بها من كرامة.

والرضا من المضيف من أعظم ما تقربه عين الضيف ويسعد به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ أشار إليهم مرة ثانية بإشارة البعيد (أُوْلَٰٓئِكَ) تعظيماً ورفعة لشأنهم وتوكيداً لذلك.

﴿حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أهل عبوديته الخاصة وأنصاره وأهل كرامته وإفضاله.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ «ألا» أداة تنبيه أي: ألا إن حزب الله وعباده المؤمنين (هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) الفائزون بالمطلوب الناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وقد أكد الفلاح في الآية بـ « ألا» أداة التنبيه و « إن» المؤكدة، وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية، وتعريف الخبر « المفلحون» أي: أولئك المفلحون الفلاح العظيم الذي لا يشبهه فلاح.

وفي هذا تنويه بما أعد الله لهم من الفوز والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة، في مقابل ما أعده لحزب الشيطان من الكفار والمنافقين من العذاب الشديد المهين والخسران المبين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن محادة الله ـ عز وجل ـ محادة لرسوله ﷺ، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل.

٢ ـ قضاء الله وحكمه على المحادين له ولرسله بالذلة والهوان والشقاء في الدنيا والآخرة وقضاؤه بالغلبة والعزة له ولرسله وأتباعهم.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل، وهما «القوي» و «العزيز» وما يؤخذ منهما من إثبات صفة القوة وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع له تعالى.

٤ ـ لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة من حاد الله ورسوله مهما كان هذا المحاد من الآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة.

٥ ـ الثناء على الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يوادوا من حاد الله ورسوله مهما كانت قرابته والامتنان عليهم بأن الله ثبت الإيمان في قلوبهم، وأمدهم بوحيه ونوره ومعرفته.

٦ ـ الوعد من الله ـ عز وجل ـ بالثواب العظيم للمؤمنين به واليوم الآخر بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مع رضا الله عنهم ورضاهم عنه وكونهم حزبه المفلحين دون غيرهم.

٧ ـ أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها.

---

(١) سيأتي تخريجه ص١٣٠.

تفسير سورة الحشر

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: «نزلت في بني النضير»[1]، وفي رواية عنه أن ابن عباس قال له: «قل سورة النضير»[2] ولهذا تسمى هذه السورة: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

سبق الكلام عليه مفصلاً في مطلع سورة الحديد وهو إخبار من الله عز وجل أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبحه ويعظمه ويعبده ويصلي له ويوحده وينقاد له وينزهه عما لا يليق بجلاله، ويدل على وجوده وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له في مواضع كثيرة من القرآن وفي مطلع خمس سور، تسمى المسبحات وهي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن. لتأكيد ذلك والدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وخضوع جميع المخلوقات لأمره، وتعظيمها له سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: هو وحده الذي أخرج الذين كفروا به وجحدوا شريعته وما جاء به نبيه محمد ﷺ.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني النضير، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي كانت في

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠٣١.

(٢) أخرجها البخاري في المغازي ٤٠٢٩.

المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، عاهدهم النبي - ﷺ - كلهم، لما قدم المدينة، فنقضوا العهد، وأول من نقض العهد منهم بنو قينقاع، وذلك في السنة الثانية من الهجرة في شوال بعد وقعة بدر، فغزاهم الرسول ﷺ، وحاصرهم في حصونهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم الله ورسوله، ثم منّ عليهم، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم.

ثم تلاهم بنو النضير فنقضوا العهد، فغزاهم رسول الله - ﷺ - بعد بدر بستة أشهر، وقبل أحد - كما روي عن عائشة - رضي الله عنها[١] وعروة بن الزبير[٢]، وقيل كانت غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. وقد أنزل الله فيهم سورة الحشر.

ثم تبعهم بنو قريظة، فنقضوا العهد لما خرج الرسول ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي - ﷺ - بعد غزوة الأحزاب، وحكّم فيهم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فحكم فيهم بحكم الله - عز وجل - أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي - ﷺ - «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب.

وكان من أمر بني النضير في نقضهم العهد غدرهم بالنبي - ﷺ - حيث هموا بقتله بإلقاء صخرة عليه، لما جاء يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فجاءه الوحي من ربه، فخرج من بينهم، ثم بعث إليهم، أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم كذا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[٣].

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: من دورهم ومنازلهم وحصونهم في ناحية المدينة، بعد حصارهم ست ليال، وقيل غير ذلك.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي: لأول محشرهم إلى أرض المحشر والمنشر الشام.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «من شك في أن أول المحشر ههنا - يعني الشام - فليتل هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ قال

---

(١) سياتي تخريجه قريباً.

(٢) ذكره البخاري عن الزهري عن عروة في المغازي - حديث بني النضير - انظر «فتح الباري» ٧/ ٣٢٩، وأخرجه ابن أبي حاتم مسنداً في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٩، «البداية والنهاية» ٥/ ٢٠، ٥٣٣.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٤٧ - ٥٠، ١٩٠ - ١٩٤، ٢٣٣ - ٢٤٨، «دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٣٥٤، «زاد المعاد» ٥/ ٦٥، ١٢٧، «البداية والنهاية» ٥/ ٣١٨، ٣٣٥ - ٣٣٦، ٥٣٣، ٦/ ٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

لهم رسول الله - ﷺ -: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[(١)].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله - ﷺ - حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي - ﷺ - حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام»[(٢)].

قال الطبري[(٣)]: «وذلك خروجهم من منازلهم ودورهم حين صالحوا رسول الله - ﷺ - على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك. فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر».

وقال السعدي[(٤)]: «وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم، على يد رسوله محمد - ﷺ - إلى خيبر، ودلت الآية على أن لهم حشراً وجلاءً غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي - ﷺ - من خيبر، ثم عمر - رضي الله عنه - أخرج بقيتهم منها».

وهناك حشر آخر وهو حشرهم وجميع الخلق يوم القيامة في أرض الشام كما جاء في الحديث: «تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»[(٥)].

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ «ما» نافية، ومعنى ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي: ما حسبتم وما توقعتم أيها المسلمون أن يخرجوا من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها وشدة بأسهم، وكثرة عددهم وعدتهم، ونحو ذلك.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

أي: وحسبوا لجهلهم وغرورهم وإعجابهم بحصونهم أنها ستمنعهم من الله إذا أراد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٤٥ - الأثر ١٨٨٥٠.
(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٣ وصححه، وأقره الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٤.
(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٧.
(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم ١/ ٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤١، ٤٠٥٥ من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه.

بهم أمراً من الإخراج أو القتل أو غير ذلك.

قال الزمخشري[(١)]: «وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم».

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي: جاءهم الله - عز وجل - وأمره من حيث لم يظنوا، ولم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والهزيمة من داخلهم وهذا - فيما يظهر - تفسير لقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ إذ كانوا يفتخرون بقوتهم ومنعتهم وحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يخطر لهم على بال، أي من باب وطريق لم يظنوا أنهم سيؤتون منه، فألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف، وكان من أسباب ذلك قتل كعب بن الأشرف سيدهم، فانهزموا من داخلهم بعد أن نزل بهم رسول الله - ﷺ - في أصحابه وحاصرهم وفي الحديث قال ﷺ -: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[(٢)].

قال السعدي[(٣)]: «﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة، ولا شدة. فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالاً عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم..»

ولهذا سألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو: (يُخَرِّبون بيوتهم) بفتح الخاء وتشديد الراء،

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٨.

وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء.

أي: يهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيديهم أنفسهم، حيث كان الواحد منهم يهدم بيته بيده بنفسه ليحمل ما يمكنه من المنقولات، من أخشاب وغيرها، حتى عتبات الأبواب على ظهر بعيره، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا ديارهم وأموالهم وأسلحتهم لرسول الله - ﷺ - فحازها رسول الله - ﷺ - وكان فيها خمسون درعاً، وخمسمائة بيضة، وثلثمائة وأربعون سيفاً.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيدي المؤمنين، وذلك لإجبار المؤمنين لهم على ذلك حيث حاصروهم، وعاهدهم الرسول ﷺ على الكف عن دمائهم مقابل خروجهم ولهم ما تمكنوا من حمله من أثاث وغيره ما عدا السلاح.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: خذوا العبرة والعظة يا أصحاب البصائر والعقول المستنيرة من حال هؤلاء اليهود الذين حل بهم من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم فأخذوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأنفسهم ويخرجون من ديارهم بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

ووجه الخطاب بالاعتبار لأولي الأبصار والعقول - السليمة - لأنهم هم الذين تهديهم بصائرهم وعقولهم - إلى التأمل والنظر والبحث عن الحق والسماع له واتباعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الواو: استئنافية و«لولا» شرطية غير جازمة وهي: حرف امتناع لوجود، و«كتب» بمعنى: قدّر، و«الجلاء»: النفي والخروج من ديارهم وأموالهم، أي: ولولا أن قدر الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جواب «لولا» واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لعذبهم في الدنيا عذاباً آخر بالقتل والسبي ونحو ذلك كما فعل بإخوانهم بني قريظة بعد ذلك لما نقضوا العهد.

أي: لولا أن الله - عز وجل - قدر عليهم الجلاء والنفي والإخراج من ديارهم وأموالهم - وهو بلا شك عذاب لهم وعقوبة - لعذبهم في الدنيا عذاباً أشد من ذلك بالقتل والسبي ونحو ذلك.

ففي الآية إشارة إلى استحقاقهم عذاباً أشد من الجلاء، لكن الله عز وجل قدر عليهم واختار لهم ما هو أخف وهو الجلاء.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ولهم مع عذاب الدنيا سواء أُجْلُوا أو قتلوا عذاب النار، وهو العذاب الأكبر كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإشارة لما سبق من إخراج أهل الكتاب من ديارهم إلى أرض المحشر الشام، وقذف الرعب في قلوبهم، وحملهم على تخريب بيوتهم، وما أعد لهم في الآخرة من عذاب النار ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمر الله ورسوله.

والمشاقة: أن يتخذ المشاق شقاً وجانباً غير شق الآخر وجانبه.

والمعنى: أنهم خالفوا وعصوا وحادوا الله ورسوله وكذبوا ما جاءهم من الحق على ألسنة رسل الله، ومنهم خاتمهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه – عز وجل – بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله – عز وجل.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

لما كان المقام مقام ذكر العقاب، لم يقل: ومن يشاق الله ورسوله – وإن كان المعنى هكذا – لأن أمر الثواب والعقاب إلى الله وحده، أي: ومن يخالف الله – عز وجل – ويعص أمره ويرتكب نهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاقه وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال عز وجل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله – ﷺ – حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة – فأنزل الله – عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[١].

وفي رواية عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي – ﷺ – فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة»[٢].

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت – رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لُؤَيّ[٣] ... حريـق بالبويرة مُسْتطير

قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيـع ... وحرّق في نواحيها السعير

ستعلم أينـا منهـا بنُزْهٍ[٤] ... وتعلم أي أرضينا تضير»[٥]

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: «يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله – ﷺ -: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل لنا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾»[٦].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: «رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي – ﷺ – فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا، أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل الله – عز وجل -: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾»[٧].

وعن يزيد بن رُومان قال: «لما نزل رسول الله – ﷺ بهم ـ يعني بني النضير ـ تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله – ﷺ – بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد قد كنت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ـ حديث بني النضير ٤٠٣١، ومسلم في الجهاد – جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ١٧٤٦، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٥، والترمذي في السير ١٥٥٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٤٤، وأحمد ٢/ ٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٢٨ ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٦، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٣٠٠٥.

(٣) السراة الرؤساء، وبنو لؤي: هم قريش، فهم الذين أغروا بني النضير بنقض العهد ووعدوهم أن ينصروهم.

(٤) النزه: البعد. وهذا إنما قاله أبو سفيان قبل إسلامه ـ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٣٢ وانظر «ديوان حسان» ص١١٠ طبعة بيروت، و«سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٧٢.

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٠٣، وقال: «حديث حسن غريب».

(٧) أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٨٦ وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥١١.

تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[١].

قوله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ (ما) اسم شرط جازم في محل نصب لـ (قطعتم) و«قطعتم» فعل شرط، وجوابه (فبإذن الله) واللينة: النخلة، واللين: النخل والتمر.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: كل ذلك القطع أو تركه ﴿بإذن الله﴾ أي: بأمره الكوني والشرعي، كما أحل ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ القتال بمكة ساعة من نهار.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وليذل الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ورسوله من اليهود وأوليائهم من المنافقين وغيرهم. وفي هذا إشارة إلى أن في قطع النخل إذلالاً للفاسقين، وكان من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم.

ولقد سجل هذا النصر للمسلمين في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف عدد من شعراء المسلمين – قال كعب بن مالك – رضي الله عنه:

لقد خزيت بغدرتها الحبور[٢]	كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب	عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً	وجاءهُمُ من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً	وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر منا جدير
فقال: بلى لقد أديت حقاً	يصدقني به الفَهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد	ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أُشربوا غدراً وكفراً	وجدّبهم عن الحق النفور
أرى الله النبي برأي صدق	وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه النضير

إلى أن قال:

فذاقوا غب أمرهم وبالاً	لكل ثلاثة منهم بعير[٣]

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٠، وانظر ٥١١.

(٢) الحبور: جمع حبر، أراد بها علماء اليهود.

(٣) أي: يتعاقبون عليه في خروجهم.

وأجلوا عامدين لقينقاع وغودر منهُمُ نخل ودور [1]

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبح الله عز وجل.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «العزيز» و «الحكيم» وأنه ذو العزة التامة، وذو الحكم النافذ والحكمة البالغة.

٣ ـ قدرة الله عز وجل ـ وقوته وشدة بأسه، وعظيم نعمته على المؤمنين في إخراجه يهود بني النضير من المدينة إلى أرض المحشر الشام مع استبعاد المؤمنين خروجهم، واغترار بني النضير بقوتهم ومنعة حصونهم.

٤ ـ الإشارة إلى أن أرض المحشر هي الشام.

٥ ـ لا عاصم من أمر الله وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا دافع له ولا مانع.

٦ ـ هزيمة الله ـ عز وجل ـ لبني النضير من داخل أنفسهم مما لم يخطر ببالهم، وإلقاؤه الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يخربون بيوتهم ويخرجون من ديارهم بعد حصارهم.

٧ ـ وجوب أخذ العبرة والعظة مما حل ببني النضير مما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم ومن ثم تخريبهم بيوتهم وإخراجهم صاغرين ـ بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

٨ ـ إنما يتذكر ويعتبر أصحاب العقول والبصائر.

٩ ـ أن ما أحله الله ببني النضير من الجلاء هو ما كتبه الله عليهم وهو أخف العقوبتين، أي: أخف من القتل والسبي ونحو ذلك.

١٠ ـ الوعيد الشديد لليهود بعذاب النار في الآخرة لكفرهم وصدهم عن سبيل الله ونقضهم العهود.

١١ ـ ذم يهود بني النضير بمشاقة الله والرسول ومخالفتهم أمر الله ورسوله وأن ما حلّ بهم من الجلاء والوعيد في النار هو بسبب ذلك.

١٢ ـ جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في باب المخالفة والطاعة بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله وطاعته طاعة لله ـ عز وجل.

١٣ ـ شدة عقاب الله ـ عز وجل ـ وانتقامه ممن خالف أمره وعصاه.

١٤ ـ أن ما حصل من المؤمنين من قطع لبعض نخيل بني النضير وترك لبعضها هو بإذن الله وأمره الكوني والشرعي.

١٥ ـ أن إذن الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بقطع نخيل بني النضير هو لإذلالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

١٦ ـ بلوغ يهود بني النضير غاية الفسق والخروج عن طاعة الله ـ عز وجل.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٧ ـ ٨٨، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٤١.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وكتب عليهم الجلاء منها، بياناً لقدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته وامتنانا على عباده المؤمنين ثم ذكر منته على رسوله ﷺ بما أرجع إليه من أموال بني النضير من غير قتال وحكم هذه الأموال ثم ذكر حكم أموال الفيء عموماً.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: وما رده الله على رسوله منهم، أي: من أموال بني النضير. و«أفاء» بمعنى: رد وأرجع، ومنه سمي الفيء وهو ظل الزوال، من فاء أي: رجع.

والفيء: هو ما أُخذ من أموال الكفار بحق من غير قتال.

والمعنى: وما رده الله وأرجعه على رسوله من أموال بني النضير.

وفي هذا إشارة إلى أن المال لا يستحقه إلا الرسل وأتباعهم المؤمنون فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وما رده ممن لا يستحقه إلى من يستحقه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما» نافية، والإيجاف: الإسراع، والركاب: الإبل.

أي: فما أسرعتم عليه من خيل ولا إبل ولا سيرتموها ولا قاتلتم ولا بارزتم للحصول عليه، أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بخيلكم وإبلكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، كما سلط رسوله محمداً ﷺ على بني النضير فحاصرهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، فصارت أموالهم فيئاً رده الله إلى رسوله ﷺ يضعها كيف يشاء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم

يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله – ﷺ – خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله على الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل»[1].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا رجلين هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فأعطاهما[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: والله عز وجل على كل شيء قدير أيّاً كان ذلك الشيء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً ولهذا قدم المتعلق وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على قوله ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء، ومن قدرته عز وجل أن أنزل الذين كفروا من أهل الكتاب من حصونهم وأخرجهم وأجلاهم من ديارهم، بلا قتال، بل بهزيمتهم من داخلهم بإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي تفتح بدون قتال.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

أي: فسهم منه لله – عز وجل، وسهم منه للرسول ﷺ يضعه مع سهم الله – عز وجل – في مصالح المسلمين، وسهم منه (لذي القربى) أي: لقرابة الرسول – ﷺ – وهم بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين ذكورهم وإناثهم، وسهم منه لليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[3].

وسهم منه للمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، أو لا يجدون شيئا، سموا مساكين من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، وسهم منه لابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في سفره ولو كان غنيا في بلده، سمي بابن السبيل لملازمته السبيل وهو الطريق للسفر.

وهذه المصارف المذكورة للفيء في هذه الآية هي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله – عز وجل –: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٠٤، ومسلم في الجهاد ١٧٥٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٦٥، والنسائي في قسم الفيء ٤١٤٠، والترمذي في الجهاد ١٧١٩، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٩. وانظر «زاد المعاد» ٥/ ١٢٨.

(٢) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٠ – ١٩٢، «سنن أبي داود»، ـ كتاب الخراج ٢٩٧١ «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠ – ٥٠٢، ٥١٣، ٥١٨ – ٥٢٠، ٥٢٦، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٩٦ «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٣ – ٨٤، ٩٠، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

وهذه هي المصارف الخاصة للفيء، وهم أهل الخمس، ومصارفه العامة هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم إلى يوم الدين، لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وبهذا عمل ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

قال ابن القيم [1] : «ومن تأمل النصوص وعمل رسول الله ﷺ ـ وخلفائه وجده يدل على قول أهل المدينة ـ يعني هذا القول ـ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها، لا يشركهم فيها سواهم نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته، وهو فصل الخطاب ومحض الصواب».

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر (تكون) بالتأنيث، و(دولةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون ﴿ يكون ﴾ بالتذكير ونصب ﴿ دولةً ﴾.

﴿كَيْ﴾ حرف مصدري ونصب، و«لا» حرف نفي. أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يكون متداولاً بين الأغنياء فقط يستأثرون به دون الفقراء.

ويؤخذ من هذا تعليل أحكام الله – عز وجل – وأن ما شرعه لحكمة، كما أن ما قدره وقضاه كوناً لحكمة أيضا.

كما يؤخذ من هذا وجوب مراعاة حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع المسلم، وأن الإسلام وسط بين الشيوعية والرأسمالية.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم في الموضعين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤٢٣ ـ ٤٢٥، «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ ـ ٨٧.

والمعنى: وما أعطاكم الرسول من الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾ وما أمركم به من الأوامر فافعلوه.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: وما نهاكم عنه من الفيء وغيره من النواهي فانتهوا عنه واتركوه.

قال ابن كثير [(١)]: «أي: مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر».

و«ما» في الموضعين تفيد العموم في المأمورات والمنهيات ويدخل فيها كل ما أمر به الشرع وكل ما نهى عنه، فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قاعدة أصولية وأصل عام يشمل جميع أصول الدين وفروعه وأن ما جاء به الرسول ﷺ يجب الأخذ به واتباعه، سواء كان مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاء في السنة النبوية، لا فرق في ذلك، فكل ذلك وحي من عند الله – عز وجل – كما قال – عز وجل -: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله – عز وجل – قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه» [(٢)].

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله – ﷺ – أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير، ثم تلا رسول الله – ﷺ – هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [(٣)].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٦، ومسلم في اللباس ـ تحريم فعل الواصلة ٢١٢٥، وأبو داود في الترجل ٤١٦٩، والنسائي في الزينة ٥٠٩٩، والترمذي في الأدب ٢٧٨٢، وابن ماجه في النكاح ١٩٨٩، وأحمد ١/ ٤٣٣ – ٤٣٤.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في الأشربة ٥٦٤٣. وأخرجه من غير ذكر الآية البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الأشربة ١٩٩٧، وأبو داود في الأشربة ٣٦٩٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣١، والترمذي في الأشربة ١٨٦٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

وفعل الأوامر مقيد بالاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما ترك النواهي فهو بمقدور كل أحد، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[(١)].

لكن الضرورات في الإسلام تقدر بقدرها، فمن ألجأته الضرورة، أو أكره على فعل أو قول منهي عنه فهو معذور قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه، فعقابه شديد من حيث كمه وكيفه ووقته ونوعه.

الفوائد والعبر:

١ ـ بيان أن أموال بني النضير التي ردها الله ـ عز وجل ـ على رسوله بلا قتال هي له ﷺ خاصة يضعها كيف يشاء، والإشارة إلى أن الغنم على قدر الغرم.

٢ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وإثبات قوته وقدرته على كل شيء.

٣ ـ بيان مصرف الفيء الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير قتال، وأنه يجعل ستة أسهم سهم لله وسهم للرسول ﷺ يوضعان في مصالح المسلمين وسهم لقرابة الرسول ﷺ، بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وهي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

٤ ـ أن الله عز وجل جعل الفيء في هذه المصارف الستة لئلا يبقى متداولاً بين الأغنياء يستأثرون به دون الفقراء.

٥ ـ عناية الإسلام بقرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومصالح المسلمين.

٦ ـ وجوب الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وتقوى الله ـ عز وجل.

٧ ـ شدة عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ـ الاقتداء برسول الله ﷺ ٧٢٨٨، ومسلم في الفضائل – توقيره ﷺ ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة ١.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة مصارف الفيء الخاصة، ثم أتبع ذلك بذكر مصارفه العامة، وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ـ مردفاً ذلك بالثناء عليهم حسب فضلهم ومنزلتهم، المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ «للفقراء» بدل من قوله «ولذي القربى» وما عطف عليه، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أفاء الله على رسوله للفقراء المهاجرين ـ إلى آخر ما عطف عليه، أو معطوف على ما قبله مع حذف حرف العطف والتقدير: وللفقراء المهاجرين. وقيل غير ذلك.

أي: أن مصارف الفيء العامة هم الفقراء المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم.

والفقير والمسكين إذا انفرد كل منهما شمل الآخر وصارا صنفاً واحداً أما إذا ذكرا جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فهما صنفان. وقد اختلف أهل العلم أيهما أحسن حالاً المسكين أو الفقير.

وقد يستدل بهذه الآية على ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من أن الفقير أسوأ حالاً لأنه لا يملك شيئاً ولهذا سمى الله المهاجرين فقراء، لأنهم لا شيء عندهم البتة هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم.

وأيضا فإن الفقير مأخوذ من انفصام فقار الظهر، المؤدي إلى الهلكة وقد استعاذ ﷺ من الفقر، فقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[1]. بينما سأل ـ ﷺ

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

- المسكنة، فقال: «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين»[1].

وقد أوصل بعضهم الأقوال في الفرق بين الفقير والمسكين إلى أحد عشر قولاً[2].

و﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ جمع مهاجر، مأخوذ من الهجرة، وهي لغة: الترك، وشرعاً: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والمراد: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، يوم أن كانت مكة - شرفها الله - دار كفر، فلما فتحها ﷺ وصارت دار إسلام فلا هجرة منها قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[3]، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها.

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[4].

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: الذين أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأموالهم، وذلك بالتضيق عليهم وأذيتهم لهم في أبدانهم وعدم تمكينهم من أداء شعائر دينهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشائرهم، حتى إن الواحد منهم يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ويتخذ الحفرة دثاراً له في الشتاء من شدة الحاجة.

وفي نسبة الديار إلى المهاجرين دليل على جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجملة حالية. أي: حال كونهم يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: زيادة في دينهم ودنياهم وأجراً في آخرتهم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: سعة في دينه ودنياه.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ورضوان الله - عز وجل - عنهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٢، من حديث أنس رضي الله عنه. وقال هذا حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٢٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦، «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٥٢، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٨٣، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في الجهاد ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ - من حديث معاوية - رضي الله عنه.

فهجرتهم خالصة لله عز وجل طلباً للزيادة والفضل منه - سبحانه وتعالى، وطلباً لرضاه.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: فخروجهم وهجرتهم لابتغاء الفضل والرضوان من الله ـ عز وجل ـ ولأجل نصرة دين الله ورسوله. فنصرة الله ـ عز وجل ـ بنصرة دينه، ونصرة رسوله ـ ﷺ ـ بنصرته نفسه ودينه في حياته، ونصرة دينه بعد وفاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم ظاهراً وباطناً، وفي هجرتهم، الذين صدَّقوا إيمانهم وأقوالهم بفعالهم، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، طلباً للفضل من الله والرضوان ونصرة الله ورسوله، كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» بخلاف من قال فيهم: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)].

والهجرة في سبيل الله وترك المحبوبات والمألوفات من الديار والأهل والأولاد والأموال والعشيرة ونحو ذلك من أعظم الدلائل على صدق الإيمان.

عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزْوَرَة[(٢)]، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[(٣)].

وقد قيل:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دومـاً لأول منـزل

وقال الآخر:

بلادي وإن جـارت عليّ عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ولهذا لما أراد بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - الهجرة منعهم أولادهم فأنزل الله - عز وجل - قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤][(٤)].

فليس من السهل على النفوس ترك هذه المحبوبات والمألوفات إلا على من تركها إيثاراً لما هو أحب إليه منها، وهو طلب مرضاة الله عز وجل، وما عنده من الثواب

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٤، ومسلم في الإمارة ١٩٠٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٠١، والنسائي في الطهارة ٧٥، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٧ - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨ - وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر سبب نزول هذه الآية في الكلام عليها في تفسير سورة التغابن.

العظيم في جنات النعيم.

وهذا يدل على فضل المهاجرين الأولين، وقدمهم في السبق في الإيمان - رضي الله عنهم وأرضاهم -، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير(١): «وهؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين».

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

أثنى الله - عز وجل - على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار - رضي الله عنهم وأرضاهم - مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وسلامة صدورهم، وإيثارهم ـ مع حاجتهم ـ لإخوانهم المهاجرين، وأن لهم نصيباً من الفيء.

عن يزيد بن الأصم - رضي الله عنه -: «أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: «ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم». قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾»(٢).

قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو: استئنافية(٣). أي: والذين سكنوا دار الهجرة المدينة من قبل المهاجرين، وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم.

وذلك أن الأنصار أسلم منهم من أسلم قبل الهجرة، وقدم منهم من قدم في العقبة الأولى والعقبة الثانية، وبايعوا النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يحبون محبة صادقة في الله ولله من هاجر إليهم من إخوانهم المهاجرين.

قال ابن كثير(٤): «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ولا يحسون في صدورهم لسلامتها ﴿حَاجَةً﴾ من حسد أو ضغينة أو حرج على إخوانهم المهاجرين ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: مما

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.
(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٨٠.
(٣) وقيل عاطفة، فيكون قوله ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ معطوفاً على قوله ﴿ للمهاجرين ﴾ انظر «الكشاف» ٤/ ٨٢.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

أعطاهم الله من الفضل والشرف، والتقديم في الذكر، والرتبة والمنزلة الرفيعة.

وفي هذا دلالة على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم في الذكر، وذكر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقيل: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ من الفيء وغيره، يعني أن نفوسهم لا تتبع ما أعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره.

والسلامة من الحسد وأمراض القلوب مقام رفيع ومطلب عزيز لا يرتقي إليه إلا من رزقه الله قلباً سليما، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص، فقال: إني لاحيت [1] أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»[2].

---

(١) أي: نازعت.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦، والطبراني بإسناد حسن. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٦: «ورواه النسائي في اليوم والليلة =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

سبب النزول:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتى رجل رسول الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله،؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله – ﷺ – فقال: «لقد عجب الله – عز وجل – أو ضحك من صنيعكما البارحة» وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة – رضي الله عنه»[1].

قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: ويقدمون، والإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه بمحاب النفس من المال والطعام والشراب والمتاع ونحو ذلك، مع حاجته إلى ذلك أو ضرورته إليه، وهو أكمل أنواع الجود والكرم، وهو ضد الأثرة والجشع والطمع والشح والأنانيّة.

﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة وفاقة وفقر.

والمعنى: أنهم رضي الله عنهم يقدمون على أنفسهم المحتاجين من إخوانهم المهاجرين ولو كان بهم حاجة وفاقة، فيبدؤون بحاجة غيرهم قبل حاجتهم. وقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[2].

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم

=

عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر، به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس فالله أعلم. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦/ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبد الله دمفو ٣/ ١٣١١ حديث ٧٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١٨ – ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٩، ومسلم في الأشربة – إكرام الضيف ٢٠٥٤، والترمذي في تفسير سورة الحشر ٣٣١٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر ـ فضل التطوع في البيت ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ـ جهد المقل ٢٥٢٦، وأحمد ٣/ ٤١١ – ٤١٢ من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه. وأخرجه أيضا ٢/ ٣٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث أبي ذر – رضي الله عنه – ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[1].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: دعا النبي - ﷺ - الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[2].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا»[3].

والإيثار منزلة عظيمة ودرجة رفيعة من أعلى مراتب الكرم، إن لم تكن أعلاها، ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ في هذا أروع الأمثال.

قال ابن كثير[4] في كلامه على قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: «وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله»[5].

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

فكفى الأنصار رضي الله عنهم شرفاً وفخراً آووا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأحبوهم، وواسوهم بكل ما يملكون مع سلامة صدورهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الواو: اعتراضية، و«من» شرطية، و«يوق» فعل الشرط

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٠٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار - قول النبي ﷺ للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ٣٧٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في المزارعة - إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمرة ٢٣٢٥.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٦ - ٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ والدارمي في الزكاة ١٦٦٠ - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ومعنى ﴿يُوقَ﴾ يكف، ويسلم من شح نفسه، وهو من رزق الإيثار.

والشح يقال بضم الشين وكسرها وفتحها وهو أشد من البخل، وقيل البخل مع حرص.

قال الشاعر:

بكيت على الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الزمخشري[1]: «الشح بالضم والكسر: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع بنفسه».

والشح أعم من البخل، لأن البخل يطلق ـ غالباً ـ على منع المال فقط، وضرره غالباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقد يطلق البخل على منع غير المال، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»[2].

أما الشح فهو يتعلق بمنع الحق الواجب من المال، وبغير ذلك من أوجه الخير والإحسان، والمعروف، بل ويحمل على الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم. قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وفي قصة هند زوجة أبي سفيان أنها قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

وعن الأسود بن هلال قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦/ ٤٠، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ٦/ ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢١١، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل»[١].

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة» [٢].

وعن أبي الهياج الأسدي قال: «كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: «اللهم قني شح نفسي» لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن، ولم أفعل» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه»[٣].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، لأنه جملة اسمية، والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأكد الفلاح لمن وقي شح نفسه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[٤].

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» [٥].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا» [٦].

ومن هذه الأحاديث والآثار يتبين أن الشح أشد وأعظم من البخل لأن الشح يحمل على

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٩ – ٥٣٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٤٦ ـ ٣٣٤٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠ – ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر – تحريم الظلم ٢٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة – صلة الرحم ١٦٩٨، وأحمد ٢/ ١٥٩ – ١٦٠.

(٦) أخرجه النسائي في الجهاد – فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٣١١٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٤، وأحمد ٣/٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٠٥.

منع الواجب وتركه وعلى ارتكاب المحرم والظلم. والشحيح يقصر في أداء الواجب، ويمنع الحق الذي عليه، ولا يتنازل عن شيء من حقه، ولو كان عند أقرب الناس إليه كوالده وولده وزوجه، يُحرِّج الآخرين، ولا يُحلل أحدا عن مظلمة، بل قد يشح بالدعاء لغيره من المسلمين، حاله وهو غير جاهل كحال ذلك الأعرابي الجاهل الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «لقد حجرت واسعاً»[(١)].

وما أشبه من هذه حاله بالحاسد الذي يكره الخير للغير.

فمن وقي شح نفسه سمحت نفسه بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، والبعد عما نهى الله عنه، وعن ظلم الخلق، وسمحت نفسه ببذل المال والخير والمعروف والخلق الطيب في سبيل الله وذاق طعم الحياة وسعد في دينه ودنياه وأخراه - نسأل الله التوفيق.

وليس من الشح المذموم الشح بالوقت أن يضيع ويذهب سدى، بل هو من الشح المحمود، لأن الوقت أغلى ما أعطي للإنسان، وقد أقسم الله به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما قال عز وجل ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

قال ابن القيم[(٢)]: «فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها، والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها».

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أثنى الله عز وجل على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار، ثم ثلث بالثناء على من جاء بعدهم من التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. مبيناً أن لهم نصيبهم من الفيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨٠، والترمذي في الطهارة ١٤٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٥٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٥.

والأنصار أي: بعد الصحابة رضي الله عنهم وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة. «يقولون» خبر للاسم الموصول «الذين».

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: اغفر لنا ذنوبنا، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة أجمعين. وكذا كل من سبق بالإيمان فمن جاء بعده من إخوانه المؤمنين إلى قيام الساعة يدعون له بالمغفرة فيدعو المتأخر منهم للمتقدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذا قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(1)].

وهذا يدل على فضل السابق على اللاحق من حيث العموم ولهذا قال ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن»[(2)].

وعن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ»[(3)].

وفي حديث حذيفة – رضي الله عنه – قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١ – من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[(1)].

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ولا تجعل في قلوبنا حقداً وبغضاً وحسداً للذين آمنوا ممن سبقونا، ولا ممن هم بين أيدينا ومعنا. أي: لا تجعل في قلوبنا غلاً لأحد من أهل الإيمان.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربنا استجب دعاءنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ و«الرءوف» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعول» والثاني على وزن «فعيل» يدلان على أنه عز وجل ذو الرأفة العظيمة، والرحمة الواسعة، والرأفة أرق من الرحمة وأخص منها.

وسلامة القلوب من الضغينة والحقد والحسد أمر عزيز المنال، وبعيد المرام إلا على من وفقه الله ورزقه قلباً سليماً، ولهذا امتن الله عز وجل على أهل الجنة بنزع الغل من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

فكم من مصلٍ قائمٍ صائمٍ، قلبه يغلي حقداً وحسداً على كثير من إخوانه المسلمين، وكم من إنسان يستطيع صيام النهار، وقيام الليل، وبذل المال لكنه لا يستطيع علاج قلبه من هذا المرض.

فمن كان في قلبه غل وحقد وحسد وضغينة على إخوانه المسلمين فنصيبه من هذا الثناء من الله في الآية الكريمة يقل ويضعف بقدر ما عنده من هذا المرض العضال – إن كان له نصيب – نسأل الله السلامة والعافية. إذ الواجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(2)].

ففتش نفسك أخي الكريم فإنه قل من يسلم من هذا الداء، فإن وجدت عندها شيئاً

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦ – من حديث أنس – رضي الله عنه.

من هذا فألزمها تقوى الله، وأعلمها بأن فضل الله واسع قد شمل البر والفاجر وإن الجنة وعدت ملأها، وإن النار وعدت ملأها. وإن الناس لو كانوا كلهم في الجنة ما ضرك ذلك، ولو كانوا كلهم في النار ما نفعك ذلك فعالج قلبك وأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وادع لهم، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن في مقدمة من لا يستحقون الوصف المذكور في الآية أولئك الذين يقعون في صحابة رسول الله ﷺ ويسبونهم ويبغضونهم وهم الرافضة، ومن سلك مسلكهم الذين جعلوا سب الصحابة وتنقصهم ديناً لهم - عليهم من الله ما يستحقون - إذ كيف يبيحون لأنفسهم الكلام فيمن شهد الله لهم بالسبق ورضي عنهم، وهم خير القرون، ولكن كما قال الله - عز وجل - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية»[(١)].

وعنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد - ﷺ - فسببتموهم، سمعت نبيكم - ﷺ - يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»[(٢)].

قال ابن كثير[(٣)]: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

وهكذا روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[(٤)].

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٧.
(٢) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٣٢١.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٩٩.
(٤) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ - ٨٧، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٤.

هؤلاء، ثم قرأ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[1] نصيبه منها، لم يعرق جبينه»[2].

وفي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسْمنا من رسول الله - ﷺ - فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[3].

قال السعدي[4]: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة ـ يعني المذكورين في الآيات: ا لمهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ـ هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح المسلمين».

ويؤخذ من الآيات، الثناء من الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم في الأفضلية هكذا: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان. فالمهاجرون ضحوا بديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله - عز وجل - والرضوان، ونصرة لله ورسوله فأثبتوا صدق إيمانهم وأقوالهم بفعالهم رضي الله عنهم.

والأنصار الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، أحبوا إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأموالهم، ولم يجدوا في صدورهم أدنى حاجة من حسد على إخوانهم المهاجرين على ما آتاهم الله من الفضل والرضوان والمنزلة الرفيعة وآثروهم على أنفسهم بالمال والطعام وغير ذلك وسلموا من شح النفوس فأفلحوا وفازوا.

والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار واتبعوهم بإحسان يدعون الله بالمغفرة

---

(١) قال في «النهاية» مادة «سرى» السَّرْو: ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي في الأصل. والسَّرْو أيضاً: محلة حِمْير.

(٢) أخرجه: الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٦، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٣٥٢. وأخرج أبو داود في الخراج - صفايا الرسول ﷺ من الأموال - آخره بنحوه ـ عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ .. الخ. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٩: «وفيه انقطاع».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٣٧.

للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار وغيرهم وأن يرزقهم سلامة القلوب على إخوانهم المؤمنين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من أحق المسلمين بأن يعطوا من مال الفيء الفقراء المهاجرين ـ رضي الله عنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

٢ ـ الثناء على المهاجرين الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونصرة لله ورسوله وأنهم هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم. وتفضيلهم على الأنصار.

٣ ـ جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها لأن الله أضاف الديار إليهم إضافة تمليك، وقد منع من هذا بعض أهل العلم والأظهر ـ والله أعلم ـ جواز ذلك.

٤ ـ الثناء على الأنصار الذين سكنوا دار الهجرة «المدينة» قبل المهاجرين وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وسلامة قلوبهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم مع فاقتهم وفقرهم وشدة حاجتهم.

٥ ـ أن للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ نصيباً في الفيء.

٦ ـ أن من وقي شح نفسه فهو المفلح حقاً.

٧ ـ في الثناء على المهاجرين بهجرتهم طلباً للفضل من الله ورضوانه ونصرة له ولرسوله وأنهم هم الصادقون ترغيب في الهجرة في سبيل الله وبيان لفضلها بل ووجوبها إذا لم يستطع المسلم إظهار شعائر دينه. كما أن في الثناء على الأنصار ترغيباً في السبق إلى الإيمان وسلامة القلوب من الحسد والضغائن، وفي الإيثار، والبعد عن الشح.

٨ ـ الثناء على التابعين الذين يدعون ربهم بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين بالإيمان وأن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، وبيان أن لهم نصيباً في الفيء.

٩ ـ مشروعية دعاء المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، ودعاء بعضهم لبعض.

١٠ ـ فضل المؤمنين السابقين على من جاؤوا بعدهم.

١١ ـ وجوب سلامة القلوب بين المؤمنين، من الغل والحقد والحسد وسؤال الله السلامة من ذلك.

١٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الرؤوف» و «الرحيم» وصفة الرأفة التامة والرحمة الواسعة له ـ عز وجل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله – عز وجل – إخراجه بني النضير من ديارهم، وذكر حكم أموالهم التي ردت إلى المسلمين بدون قتال ثم ذكر موقف المنافقين ووعدهم ليهود بني النضير بمناصرتهم وربط مصيرهم بمصيرهم، وتكذيب الله لهم في ذلك مبيناً رهبة اليهود وجبنهم، وأن مثل المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم كمثل الشيطان حين زينَّ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآية.

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ «يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم»[(١)].

وعن يزيد بن رومان: «أن رهطاً من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن وديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم»[(٢)].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التعجب، أي: انظر لهؤلاء المنافقين وتعجب من قولهم وحالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٥. وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠، وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩١.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: إلى المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله ابن أبي وأمثاله وسمي من يظهر الإيمان ويبطن الكفر بالمنافق أخذاً من نافقاء الجربوع التي يجعلها في نهاية جحره عليها قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج، والمنافق له وجهان يأتي المؤمنين بوجه ويأتي غيرهم بوجه آخر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم بالكفر يهود بني النضير وسموا إخوانهم لأن الكفر يجمعهم، فالمنافقون وإن كانوا بين ظهراني المؤمنين ويحسبون منهم في الظاهر فهم أشد كفراً وعذاباً من جميع طوائف الكفار لأنهم غصة في حلوق المؤمنين ويصعب التحرز منهم وينطلي أمرهم على الكثيرين كما قال تعالى ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بخلاف الكافر الظاهر البين، ولهذا قال تعالى في عذابهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجتم من المدينة وأجليتم منها لنخرجن معكم، واللام في قوله (لنخرجن) واقعة في جواب القسم. أي: إن مصيرنا مرتبط بمصيركم حتى في الخروج معكم إن أخرجتم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع في التخلي عنكم وعدم نصرتكم وعن كون مصيرنا مصيركم، ولا في الكلام فيكم أحداً أبداً أياً كان حتى ولو كان من المؤمنين الذين نحن معهم في الظاهر، أي: لا نطيع فيكم قول عاذل أو مخوف.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: والله إن قوتلتم لننصرنكم. أي: وإن قاتلكم محمد ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم بالقتال معكم.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: والله يشهد إنهم في دعواهم الخروج معهم إن أخرجوا وارتباط مصيرهم بمصيرهم وعدم التخلي عنهم لقول أحد أبدا ومناصرتهم إن قوتلوا لكاذبون. فكل هذا كذب منهم شهد الله بكذبهم فيه، وليس هناك قول أكذب من قول

شهد الله بكذبه وهو خير الشاهدين، كما في قوله تعالى عنهم في مطلع سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

قال ابن كثير[1]: «والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه».

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ في الموضعين موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم لتمسكهم بالتراب والطين ونظرتهم المادية.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: والله لئن قوتلوا لا ينصرونهم لجبنهم وخوفهم.

وهذا قسم من الله عز وجل يؤكد كذبهم في دعوى الخروج معهم إن أخرجوا وعدم نصرتهم لهم إن قوتلوا بعد شهادته – عز وجل – بكذبهم وفي هذا دليل على صدق نبوته ﷺ. وهذا الذي حصل فإن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل إلى بني النضير – بعدما قاموا يتجهزون للخروج – أن لا تخرجوا فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم غطفان فطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يحمل اللواء، فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي، وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على أن يخرجوا من المدينة – كما سبق بيانه[2].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم. والتقدير: والله لئن نصروهم ليولن الأدبار.

والمعنى: ولو فرض أنهم أرادوا نصرهم وقاتلوا معهم مع أن هذا لا يمكن أن يقع منهم لأن الله شهد على كذبهم في ذلك وأقسم على عدم نصرتهم لهم. وأمر شهد الله بكذبه وأقسم على عدم وقوعه لا يمكن أن يكون ولكن الآية على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: لو فرض أنهم نصروهم.

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم. والجملة جواب القسم في قوله

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

(٢) انظر الكلام على قوله ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ الآية.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: ليولن المعركة أدبارهم وظهورهم فارين هاربين خوفاً من الموت، كما هي حالهم إذا خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يرجعون من عرض الطريق ويبطئون ويثبطون ويفرون من الزحف كما قال تعالى عنهم في سورة النساء ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الآية: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله هنا ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يحتمل أيضا أن يراد به الطائفتان معاً المنافقون واليهود بمعنى أن يكون نصر المنافقين لبني النضير سبباً في هزيمتهم جميعاً وفرارهم من المعركة مولين الأدبار.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ثم تكون النتيجة عدم نصرهم فتكون مناصرة المنافقين لهم سببا لهزيمتهم وعدم نصرهم وفرارهم من المعركة، وتولية الأدبار.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان في وعودهم سواء لإخوانهم الكافرين، أو للمؤمنين يكذبون، ويثبطون ويبطئون، ويفرون إن حضروا المعركة، يريدون المشاركة في الغنم دون الغرم كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ اللام لام الابتداء. أي: لأنتم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي: في صدور المنافقين واليهود ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أنهم يخافون منكم أيها المؤمنون أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وماذا يؤمل في قوم يخافون من الناس أشد من خوفهم من الله، وما أكثر من هذه حاله من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمعنى المأخوذ من الجملة السابقة، أي: خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم ولا معرفة ولا فقه في الدين. وإلا كيف يخافون من المخلوق الضعيف أشد من

خوفهم من الخالق العظيم سبحانه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (جدار) على الإفراد، وقرأ الباقون ﴿ جُدُر ﴾ على الجمع. أي: لا يقاتلكم اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: إذا كنتم مجتمعين جيشاً واحداً. ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: إلا وهم في قرى محصنة، أي: في داخل الحصون لا يبرزون لكم ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: أو من خلف حيطان وأسوار، فاعتمادهم في القتال على حصونهم وأسوارهم، ولا شجاعة لديهم، وفي هذا أعظم الذم لهم.

قال ابن كثير [1]: «يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

ويحتمل أن تكون ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الواو، أي: لا يقاتلكم اليهود حتى في حال اجتماعهم ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم بينهم شديدة، والبأس: العداوة والتقاتل، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فاليهود أعداء فيما بينهم وهم نحل وطوائف متنافرة متناحرة، وهم والمنافقون أعداء أيضا، وإن أظهروا المودة فيما بينهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخطاب في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ للرسول - ﷺ - ولكل من يصلح له ممن يشاهد ظواهر اليهود والمنافقين، أي: تظنهم أيها الناظر إليهم أنهم مجتمعون على رأي واحد وقلب واحد.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرقة جدا، وليسو على قلب رجل واحد ولا على رأي واحد.

قال ابن كثير[1]: «أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لجبن المنافقين واليهود وعداوتهم فيما بينهم وتفرق قلوبهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون، أي: لم يستفيدوا من عقولهم بمعرفة الحق والعمل به، ولهذا صاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ الكاف: للتشبيه، و«مثل» صفة وشبه، أي: مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد، وما حل بهم من الجلاء والنهاية المؤلمة ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول - ﷺ - قبل هذا أو كمثل كفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا ونالوا وتجرعوا عقوبة كفرهم وبغيهم، هذا في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حساً ومعنى في النار، مع عذاب الدنيا.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الكاف: للتشبيه، والمثل: الشبه. والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله - عز وجل - من الإنس والجن والحيوان. قال تبارك وتعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[(١)] والمراد به هنا إبليس وأعوانه.

والمعنى: مثل المنافقين في وعدهم لليهود بالخروج معهم ونصرهم، وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان اكفر، فأمره بالكفر بالله وإنكاره وجحد شريعته وزين له ذلك.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ أي: فلما كفر الإنسان قال الشيطان إني بريء منك، أي: تبرأ من الإنسان بعد أن أوقعه في الكفر وزينه له، وهذا فعله مع عامة الناس. كما قال الله عنه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة - ما يقطع الصلاة ٧٠٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قال ابن كثير [(١)] في كلامه على الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية. «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في ذلك كمثل الشيطان إذ سول للإنسان – والعياذ بالله – الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب – قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.. فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل»[(٢)].

والله أعلم بصحة هذه القصة وما جاء في معناها. والآية أعم من ذلك كله، فالشيطان لا يترك أحداً من الإنس، بل ولا من الجن إلا زين له الكفر، فإن عجز عنه نقله إلى البدعة، فإن عجز عنه نقله إلى ترك الواجب، فإن عجز عنه نقله إلى فعل المحرم، فإن عجز عنه شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عنه شغله بالمباحات، فإن عجز وأيس منه سلط عليه من يؤذيه من شياطين الجن والإنس، لكن ذلك لا يضره، حيث سلم له دينه، بل هو زيادة أجر له.

والشيطان في هذه المقالة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كاذب غير صادق إذ لو كان يخاف الله حقاً ما خالف أمره، واستكبر عن طاعته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٢، وأخرجه بمعناه عن علي رضي الله عنه ٢٢/ ٥٤١. وقد ذكرهما ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠١ – ١٠٢ – نقلاً عن الطبري وقال بعد ذكر قصة ابن مسعود رضي الله عنه «وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص. والله أعلم».

﴿لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد أقسم أنه سيعمل جاهداً في إغواء بني آدم كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكانت نهاية الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الفاعل له، ومصيرهما أنهما في النار خالدين فيها وكذلك عاقبة ونهاية المنافقين واليهود الهزيمة والبوار في الدنيا، وفي الآخرة نهايتهم النار وبئس القرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء وعقوبة الظالمين، الذين وضعوا العبادة في غير موضعها فعبدوا غير الله، وهذا جزاء كل ظالم.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله عز وجل كما قال لقمان ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ وعد المنافقين وحلفهم لإخوانهم الكفرة من أهل الكتاب بوحدة مصيرهم وأنهم إن أخرجوا ليخرجون معهم وإن قوتلوا لينصرونهم، وتكذيب الله عز وجل ـ لهم والتعجيب من حالهم ومقالهم.

٢ ـ إثبات أخوة المنافقين للكفرة من أهل الكتاب لأن الكفر يجمعهم، بل المنافقون أشد كفراً من جميع الكفار.

٣ ـ أن من صفات المنافقين الحلف الكاذب وإخلاف الوعود والجبن والفرار من الزحف.

٤ ـ هزيمة أهل الكتاب وعدم نصرهم لمحاربتهم الله ورسوله واعتمادهم على المنافقين ووعودهم الكاذبة لهم بنصرهم.

٥ ـ خوف المنافقين واليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله لعدم علمهم وفقههم في الدين وعدم معرفتهم بعظمة الله ـ عز وجل.

٦ ـ شدة جبن اليهود وعدم قدرتهم على مبارزة المؤمنين ومقاتلتهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.

٧ ـ شدة عداوة اليهود فيما بينهم وشدة العداوة بينهم وبين المنافقين، يظنهم الناظر إليهم مجتمعين وقلوبهم متفرقة متعادية متنافرة لأنهم لم يعقلوا ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم.

٨ ـ لا ينبغي الاغترار بالمظاهر وإنما المعوّل عليه ما في المخبر.

٩ ـ أن مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد وما حل بهم من الجلاء والعقوبة والنهاية المؤلمة كمثل الذين من قبلهم قريبا وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا وكفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، وما أعد لهم من العذاب الأليم في النار.

١٠ ـ أن مثل المنافقين في وعدهم اليهود بالخروج معهم ونصرهم وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان في أمره الإنسان بالكفر وتبريه منه زعماً منه أنه يخاف الله ـ وهو كاذب.

١١ ـ أن مصير الشيطان والإنسان المتبع له على الكفر الخلود في النار، وهو مصير المنافقين واليهود مجازاة لهم على ظلمهم وهو مصير كل ظالم وبئس المصير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

عن جرير بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الآية: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(١)].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

صدَّر – عز وجل – خطابه للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الأوامر واجتناب ما بعده من النواهي يعد من مقتضيات الإيمان – كما قال عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه –: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»[(٢)].

وقد اجتمع في هذه الآيات أمر، بل عدة أوامر تأمر بخير، ونهي عن شر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم ٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.
(٢) سبق تخريجه.

وتقوى الله – عز وجل – امتثال أوامره واجتناب نواهيه [(١)].

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ «الغد» في الأصل اليوم الذي بعد يومك والأيام ثلاثة: يوم أمس، وقد مضى، واليوم الحاضر، ويوم غد لا يدري الإنسان أيدركه أم لا.

والمراد بـ«غد» يوم القيامة، وسمي بـ«غد» لتحقق وقرب وقوعه لأنه آت وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد وغد يوم القيامة» [(٢)].

والمعنى: ولتنظر ولتتأمل كل نفس الذي قدمته ليوم القيامة من الأعمال، وهل يصلح أن تلقى الله – عز وجل – به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ – ٥٨]. وقبل أن يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

قال ابن القيم [(٣)]: «فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]» [(٤)].

فوا أسفا على أعمار وأوقات تتصرم وتنقضي باللهو والغفلات، والانشغال بجمع حطام الدنيا الفاني، والاستمتاع بالملذات، دون الاستعداد لذلك اليوم وما فيه من الغبن والندامة والحسرات.

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ﴾ [الآية: ١].

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦.

(٤) انظر «الحلية» لأبي نعيم ١/ ٥٢.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد للأمر الأول بتقوى الله، يدل على أهمية تقوى الله وعظم شأنها فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وبها الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل، ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. واطلاعه عز وجل على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: خبير بالذي تعملون، أو بعملكم أي: ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرها ولا يخفى عليه منها شيء.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالفه، لأن مقتضى كونه - عز وجل - مطلعاً على أعمال العباد أن يحاسبهم ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين نسوا الله وذكره والعمل بطاعته من أهل الكفر والمعاصي، ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فأنساهم العمل الصالح لأنفسهم مجازاة لهم على نسيانهم له عز وجل ولذكره وطاعته، والجزاء من جنس العمل قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

قال ابن القيم [(١)]: «فلما نسوا ربهم نسيهم وأنساهم أنفسهم، فعاقب من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

قال: ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، بنسيه ذلك جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضا: فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها. وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم».

ويؤخذ من مفهوم الآية الأمر بذكر الله عز وجل وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن القيم[١] بعد ما ذكر ما يترتب على نسيان العبد نفسه من كون أمره فرطاً وضياع مصالحه وتعرضه للهلاك والخيبة والخسران قال: «ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسيه في العذاب يوم القيامة».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لشأنهم ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هم الخارجون عن طاعة الله - عز وجل - المخالفون لأمره المرتكبون لنهيه.

وأكد الفسق فيهم بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، مع ضمير

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٨ - ٤٢٩.

الفصل «هم».

وبقدر ما يغفل الإنسان عن ذكر الله - عز وجل - يكون نصيبه من هذا الوصف المشين.

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ «لا» نافية أي: لا يستوي أصحاب النار وساكنوها وملازموها وهم الكافرون والفاسقون، وأصحاب الجنة وهم ساكنوها وملازموها من المؤمنين المتقين، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء عند الله وفي حكمه، وفيما أعده لكل منهم، وفي حال كل منهم من حيث السعادة والشقاوة والربح والخسران ولهذا قال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالأجر والثواب والناجون من العقوبة والعذاب. وأكد الفوز فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين مع ضمير الفصل «هم».

فتأمل - أخي الكريم - في قوله ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فمن الذي نفى التساوي بين هؤلاء وهؤلاء؟ هو العليم الحكيم العلي العظيم سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨].

فشتان ما بين الفريقين:

شتان بين الحالتين فإن ترد   جمعاً فما الضدان يجتمعان[١].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

«لو» شرطية غير عاملة و«أنزلنا» فعل الشرط، وجوابه ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهي: حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع رؤيتك خشوع الجبل خشوع عبادة وتكليف وتصدعه من خشية الله لعدم إنزال القرآن عليه، وإلا فجميع المخلوقات من الجمادات والحيوانات ناطقها وبهيمها كلها خاضعة منقادة لله – عز وجل – كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فيدل قوله ﴿أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ على علو الله عز وجل على خلقه، كما يدل على أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق – كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وقد امتحن بسبب هذا القول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء فصبر رحمه الله وتصدى لهذه الفتنة وفندها، ولهذا قال علي بن المديني: «أعز الله الإسلام برجلين أبو بكر يوم الردة، وابن حنبل يوم المحنة» أي: يوم المحنة بالقول بخلق القرآن.

﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له ﴿خَاشِعًا﴾ أي: ذليلاً خاضعاً ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشققاً، ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من الخوف الشديد من الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والخشية: أشد الخوف، فهي أخص منه، ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي، وعلم الخاشي، لقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

والمراد: بيان أن الجبل على ما هو عليه من الشدة والصلابة والقساوة وعظم الخلقة لو أنزل القرآن عليه وسمعه وفهم ما فيه من دلائل عظمة الله ـ عز وجل ـ والأحكام العظيمة، والمواعظ البليغة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لخشع

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية انظر ص١١.

الله وخوفه، فكيف لا تخشع ولا تلين ولا تتصدع قلوب كثير من الناس وقد أنزل القرآن عليهم وسمعوه وفهموه فصارت قلوب كثير من الناس أقسى من الجبال قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] أي: لكان هذا القرآن. ولهذا أبت السموات والأرض والجبال مع عظمها حمل الأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فسبحان من جعل الجبال لو أنزل عليها القرآن تخشع وتخضع وتلين وهي من الحجارة مع شدتها وصلابتها [١] بينما تقسو قلوب كثير من الناس فلا تتأثر بالقرآن ولا تخضع، ولا تلين، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الإشارة للأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن كما في قوله تعالى قبل هذا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢١].

والأمثال: جمع مَثَل، وهو تشبيه الشيء المعنوي بالشيء الحسي لإيضاح الأمر المعنوي وتقريبه في الأذهان، وهذا كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى في تشبيه الإيمان في قلب المؤمن ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

---

(١) ومن هذا حنين الجذع إليه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه» أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٨٣، وأخرجه بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ٣٥٨٤، ٣٥٨٥.

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتفكروا. والتفكر: استعمال الفكر والعقل الذي منحه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، والتأمل في آيات الله – عز وجل – الكونية والشرعية، وفيما فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من أمر، والكف عما بعده من نهي وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

٢ ـ وجوب تقوى الله، والاستعداد ليوم القيامة، وتأكيد وجوب ذلك.

٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وكمال خبرته ـ عز وجل ـ وعلمه بأعمال العباد، وفي هذا وعد ووعيد.

٤ ـ تحذير المؤمنين ونهيهم أن يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم والعمل لخلاصها وسعادتها وأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ـ تعالى ـ.

٥ ـ إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم والخير العميم، وأولئك في دركات الجحيم.

٦ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل على خلقه ـ بذاته وصفاته.

٧ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم.

٨ ـ الإشارة لقساوة قلوب الفاسقين الكافرين التي لم تلن ولم تخشع لذكر الله ـ عز وجل ـ وكلامه وأنها أشد قسوة من الجبال التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت من خشية الله.

٩ ـ وجوب الخشوع لله ـ عز وجل ـ والذل والخضوع له والخوف منه.

١٠ ـ ضرب الأمثال للناس لأجل أن يتفكروا في آيات الله ـ عز وجل ـ ويتعظوا بها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الغيبة تعظيماً لنفسه لأنه هو العظيم.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، وهو علم على ذات الرب – عز وجل – وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، وقد يأتي تابعاً كما في قوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. فـ«الله» تابع للاسم الذي قبله، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلاً، أو عطف بيان.

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا معبود بحق سواه، ولا رب غيره، فقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي للعبادة عما سواه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات العبادة له وحده عز وجل، وهذا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، نفي العبادة عما سواه سبحانه، وإثبات العبادة له وحده. فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: السر وما غاب عن الخلق، والشهادة: العلانية وما يشاهده الخلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقدّم الغيب على الشهادة في قوله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إشارة أن الغيب والشهادة عنده سواء كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعلان» والثاني على وزن «فعيل»، و«فعلان» أبلغ من «فعيل» ولهذا قدم «الرحمن» على «الرحيم» هنا، وفي البسملة والفاتحة.

ويدل كل من «الرحمن» و«الرحيم» في حال انفراد كل منهما عن الآخر على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له – عز وجل – ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، [الحج: ٦٥] والناس عام للمؤمنين وغيرهم.

قال ابن كثير [(١)] في كلامه على قوله ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: «والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

وفي حال اجتماع «الرحمن» مع «الرحيم» كما في هذه الآية يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله - عز وجل - ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها - سبحانه - إلى من شاء من خلقه، كما يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق، ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين - كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«الرحمن» لا يسمى به غير الله، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١].

أما «الرحيم» فيجوز أن يسمى ويوصف به غير الله، كما قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، وتوطئة وتمهيد لما بعده.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: مالك الكون كله المتصرف فيه، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المطهر، المعظم الممجد. كما قال عز وجل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» [(٢)].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ كما في الحديث «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [(٣)]. فهو السلام: الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه عز وجل السلام، فهو عز وجل المسلم عباده من الآفات والشرور، والذي يَسْلَمُ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأحمد ٢/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨ - من حديث ثوبان - رضي الله عنه.

خلقه من أن يظلمهم كما قال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «أمَّن خلقه من أن يظلمهم [(١)]» واختاره الطبري [(٢)].

وقال ابن زيد: «صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به»[(٣)].

وقال السعدي [(٤)]: «المصدق لأنبيائه ورسله بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات».

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «المهيمن: الشهيد»[(٥)]. فيكون كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقيل ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الأمين، وقيل: المصدق، وقيل: الرقيب والحفيظ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التامة كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] فهو – عز وجل – صاحب العزة التامة، بأنواعها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع[(٦)].

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر وقهر خلقه على ما يشاء، وأذعن له سائر الخلق، والذي يجبر الكسير والمصاب ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ذو الكبرياء والعظمة كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منها عذبته»[(٧)].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس وتعالى عما يشركون معه من الشركاء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾

أي: الذي خلق الخلق، وأصل الخلق: الإبداع والتقدير، فالخالق المبدع المقدر لما يوجده.

قال ابن تيمية[(٨)]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.
(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٤٥.
(٥) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٣.
(٦) راجع الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية: ١ من سورة الحديد].
(٧) سبق تخريجه.
(٨) في «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٦٠.

وقال حافظ الحكمي[(١)]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره».

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الذي برأ الخلق. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الممثل والمشكل للصور على ما يريد.

قال الزمخشري[(٢)]: «(الخالق): المقدر لما يوجده (البارئ) المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الممثل».

وقال القرطبي[(٣)]: «البارئ»: المنشئ المخترع، و«المصور» مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها».

فخلق، أي: قدر، ثم برأ، أي: أنشأ واخترع، ثم صور، أي: جعل التخطيط والشكل المناسب.

قال ابن كثير[(٤)]: «الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري[(٥)]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدّرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلّاد ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ولهذا قال «المصور» أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها».

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: له عز وجل - الأسماء الحسنى من كل وجه ألفاظها ومعانيها ودلالاتها وآثارها وحقائقها وغير ذلك، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»[(٦)]. متفق عليه.

---

(١) في «معارج القبول» ١/ ١٣١.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٨٥.

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٤٨.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٠٦.

(٥) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» ص٩٤.

(٦) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤١٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

وزاد الترمذي وابن ماجه: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الشهيد، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» هذا لفظ الترمذي [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(٢)]: «تعيينها ليس من كلام الرسول ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه».

وقال ابن كثير [(٣)]: «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ثم قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه أحمد ... عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ – أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» [(٤)].

قال ابن كثير: «وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «عارضة الأحوذي

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦١، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب.. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث».

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٢.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩ – ٥١٠، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم – فالله أعلم».

وقد ذكر شيخنا الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كتابه «القواعد المثلى» أنه جمع تسعة وتسعين اسماً مما ظهر له من كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – ﷺ. قال: «فمن كتاب الله: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، الآخر، والظاهر، والباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ الحسيب، الحفيظ، الحفي، الحق، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر».

قال الشيخ: هذا ما اخترناه بالتتبع واحد وثمانون اسماً في كتاب الله تعالى وثمانية عشر اسماً في سنة رسول الله – ﷺ – وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفي» لأنه إنما ورد مقيداً في قوله – تعالى – عن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن» لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

قال: ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام»[(١)].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسبح له جميع الذي في السموات والأرض، من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنبات والجماد، وسائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤][(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو عز وجل ذو العزة التامة، والحكم النافذ والحكمة البالغة. والحكيم مشتق من الحكم ومن الحكمة، فله عز وجل الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية[(٣)].

عن معقل بن يسار – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: « من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة

---

(١) انظر «القواعد المثلى» ص١٥ – ١٦.

(٢) انظر ما سبق في الكلام على مطلع سورة الحديد.

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية ١ من سورة الحديد].

الحشرِ وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه بذكر أسمائه الحسنى الدالة على صفاته العليا.

٢ ـ إثبات اسمه ـ عز وجل ـ الأعظم «الله» وأنه عز وجل المعبود الذي لا معبود بحق سواه.

٣ ـ علم الله الواسع المحيط بكل شيء مما يُسر ويظهر، ومما غاب عن الخلق ومما يشاهد.

٤ ـ إثبات اسميه عز وجل «الرحمن» و «الرحيم» وما يدلان عليه من صفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٥ ـ أن «الرحمن» أبلغ وأخص من «الرحيم» لهذا قدم عليه.

٦ ـ تأكيد ألوهيته عز وجل ـ وأنه لا معبود بحق سواه.

٧ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «الملك» و «القدوس» وسعة ملكه وتمام تصرفه وعظمته.

٨ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «السلام» و «المؤمن» وما يدلان عليه من الصفة، فهو السلام الذي لا يعتريه نقص ولا عيب والمسلم عباده من الآفات والمؤمن الذي لا يظلم أحد عنده، المصدق لأنبيائه ورسله وعباده في إيمانهم.

٩ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «المهيمن» و «العزيز» و «الجبار» و «المتكبر»، وما يؤخذ منها من إثبات هيمنته عز وجل وشهادته على الخلق ورقابته عليهم وحفظه لهم، وأنه عز وجل ذو العزة التامة بأنواعها عزة القوة، وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع، والجبار الذي أذعن له سائر الخلق والذي يجبر المصاب ذو الكبرياء والعظمة.

١٠ ـ تنزيه الله ـ عز وجل ـ لنفسه عن الشريك، وأمره العباد بذلك.

١١ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «الخالق» و «البارئ» و «المصور» وما يؤخذ منها من إثبات صفة الخلق والتقدير والبرء، والتصوير ـ له عز وجل لجميع المخلوقات على أحسن الخلق وأجمل الصفات.

١٢ ـ إثبات أن لله ـ عز وجل ـ الأسماء الحسنى كلها بلا حصر.

١٣ ـ تسبيح جميع ما في السموات والأرض لله ـ عز وجل.

١٤ ـ تأكيد تسميته عز وجل ـ بالعزيز وتأكيد عزته وقوته وقهره وامتناعه.

١٥ ـ إثبات اسم الله «الحكيم» وما يؤخذ منه من إثبات صفة الحكم التام له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والشرعي والجزائي والحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦، والترمذي في «فضائل القرآن» ٢٩٢٢. وقال الترمذي: «حديث غريب».

تفسير سورة الممتحنة

سبب النزول

لما نقض أهل مكة العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ أمر النبي ﷺ بالتجهز لغزوهم، وسأل الله – عز وجل – أن يعمي عليهم خبره، لكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه بعزم رسول الله – ﷺ – على غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً يحمون بها قرابته، فأنزل الله هذه السورة [١].

فعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: «بعثني رسول الله – ﷺ – أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[٢] فإن بها ظعينة[٣] معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى[٤] بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، قلنا لتُخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها[٥] فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله – ﷺ – فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله – ﷺ – فقال رسول الله – ﷺ –: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله – ﷺ –: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ونزلت فيه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾»[٦].

() انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٩، «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٩، «البداية والنهاية» ٦/ ٥١٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٠٨.

(٢) روضة خاخ على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٣) أي: امرأة.

(٤) أي: تتسابق.

(٥) أي: من ذوائبها المضفورة.

(٦) أخرجه البخاري في المغازي ـ فضل من شهد بدراً ٤٢٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة – فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٤٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٦٥٠، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٥، وأحمد ١/ ٧٩ – ٨٠.

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير ابن العوام، وكلنا فارس. وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها [1] وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله أردت أن تكون لي يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني، فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟، فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[2].

وفي رواية: «فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية»[3].

وفي رواية: «فأنزل الله - عز وجل - في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى آخر القصة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ

(١) الحجزة: معقد الإزار.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - فضل من شهد بدراً ٣٩٨٣.

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٠ - ٥٦١.

(٤) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩، «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٢ - ٥٦٣.

مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدر الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونادى المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده وهو عدم موالاة الكافرين يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(١)].

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ «لا» ناهية، والنهي هنا يفيد التحريم، أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أولياء لكم وأنصاراً.

ويؤخذ من الآية أن الكفار كما هم أعداء الله - عز وجل - هم أيضاً أعداء للمؤمنين فلا يمكن لمن كان عدواً لله - عز وجل - أن يكون وليا حقاً للمؤمنين صادقاً في موالاته لهم - وإن زعم ذلك - فعدو الله عدو لأولياء الله، وولي الله ولي لأولياء الله.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذه الآيات أشد التهديد والوعيد وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين.

وعن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يقول: «ضرب لنا رسول الله - ﷺ - أمثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٠٢ - الأثر ٥٠٢٧.

عشر. قال: فضرب لنا مثلاً منها وترك سائرها، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة»[1].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: توادونهم، وتفعلون معهم وتقولون لهم ما يوحي بمودتكم لهم، وهذا كقوله بعد ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ .

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ الواو: للحال، و«قد» للتحقيق. أي: والحال أنهم قد كفروا بالذي جاءكم من الحق من عند الله على لسان رسوله - ﷺ - من القرآن والسنة، أي: جحدوه وأنكروه، ولم يؤمنوا به.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة كالتفسير لكفرهم، أو حال من كفروا، أي: أنهم أخرجوا الرسول - ﷺ - وإياكم أيها المؤمنون فاضطروكم إلى الخروج والهجرة من مكة إلى المدينة، وما زالوا يخرجون من آمن ولهذا قال ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولم يقل: أخرجوا الرسول وإياكم، إشارة إلى استمرارهم على أذية من آمن واضطراره إلى الخروج والهجرة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: بسبب إيمانكم بالله ربكم، أي: لا سبب لإخراجكم سوى إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨، ٩]، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير [2]: «وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده».

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ ﴿جِهَادًا﴾ مفعول لأجله.

أي: إن كنتم خرجتم وهاجرتم لأجل الجهاد في سبيلي. والجهاد: بذل الجهد والطاقة والوسع في قتال الكفار، وفي طاعة الله - عز وجل -.

﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: لإعلاء كلمتي ونصر ديني. كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٧.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١١٢.

هي العليا فهو في سبيل الله - عز وجل -»[1].

﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ أي: طلباً لمرضاتي عنكم.

والمعنى: إن كنتم خرجتم من مكة لأجل الجهاد في سبيلي وطلباً لرضائي، صادقين في ذلك فلا تتخذوهم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أي: فكيف تسرون إليهم بالمودة؟ أو فلم تسرون إليهم بالمودة.

﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ الواو: حالية و«ما» في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أني أنا أعلم بالذي أخفيتم والذي أعلنتم، أو بإخفائكم وإعلانكم، أي: أعلم بالذي تسرون به وتضمرونه، والذي تجهرون به وتعلنونه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن علمه - عز وجل - بما أخفي وما أعلن - علمه بما فعل حاطب - رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية و«يفعله» فعل الشرط وجوابه قوله ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد».

والضمير في قوله ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ يعود إلى المفهوم من النهي السابق من اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها.

﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد تاه وبعد عن وسط الطريق، أي: عن الطريق العدل، والطريق السوي، وأخطأ طريق الحق والصواب. قال تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ أي: إن قدروا عليكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أي: تظهر لكم عداوتهم الشديدة.

﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾ أي: ويمدوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالقول.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ - من حديث أبي موسى - رضي الله عنه.

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بما يسوؤكم ويؤذيكم وينال منكم من الفعل السيء والقول السيء. أي: فلو أتيحت لهم فرصة لما ادخروا وسعاً في أذيتكم بالفعل والقول.

﴿وَوَدُّواْ﴾ أي: تمنوا وأحبوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ودوا وتمنوا وأحبوا كفركم، أو أن تكفروا، فهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على أي خير. ويؤخذ من الآية أن الشيطان وجنده وأعوانه من شياطين الإنس والجن لا يرضيهم ولا يقنعهم ولا يكفيهم إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم – كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى في أتباع الشهوات: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أي: لن تغني عنكم ولن تدفع عنكم ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ خصوصاً – فهو من عطف الخاص على العام.

والأرحام: جمع رحم، وهي في الأصل موضع تكوّن الجنين، والمراد بهم هنا القرابة، وسمي القرابة أرحاماً لأنهم خرجوا من رحم واحد، أو لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

والأولاد: جمع ولد، يشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وهم ذريته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الصاد مخففة، (يَفْصِلُ) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة (يُفَصِّلُ) وقرأ الباقون بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة (يُفْصَلُ). وسمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومعنى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يمايز ويفرّق بينكم، فلا أحد ينفع أو يغني عن أحد، ولا

أحد ينتصر أو يدفع عن أحد عذاب الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ – ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي ذلك اليوم لا أحد ينفع أحداً ولا أحد ينتصر لأحد بخلاف ما كان عليه الحال في الدنيا حيث يقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح[1]

وقد يحتمل أن معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يحكم بينكم بإعطاء كل منكم حقه من الآخر، ولو كان أقرب الناس إليه كأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز أن يواد الإنسان أو يوالي الكفار لأجل كونهم من قرابته، أو أولاده، فإنهم لا ينفعونه يوم القيامة، بل تعود عليه موالاتهم بالضرر يوم القيامة. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[2].

ولو كان أحد يملك لقرابته في ذلك اليوم نفعاً أو دفعاً لكان أولى الناس بذلك سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فأمه وأبوه في النار.

فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما مضى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»[3].

ولم يستطع – ﷺ – هداية عمه أبي طالب الذي كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه – انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣. وقد أخرجه الترمذي في الزهد ٣٤١٤ عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان – بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ٢٠٣. وأبو داود في السنة – باب في ذراري المشركين ٤٧١٨، وأحمد ٣/ ١١٩.

عن النبي ﷺ.

ولما توفي أبو طالب عم النبي ﷺ على الشرك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣][1].

وروي أنه قال: «لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني» فاستغفر له بعدما مات. فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد - ﷺ - يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١]».

ورُوِيَ: «أنه ﷺ استأذن ربه في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له فيه، ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى ختم الآية ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] [2].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عالم به، مطلع عليه، ذو علم وبصر به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر - ففي هذا وعد لمن اتقى الله وأطاعه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من الطلب، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٢ ـ نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم الكفار ومودتهم وتأكيد ذلك وتأكيد حرمة ذلك، وتهييج المؤمنين على عداوتهم لكفرهم بما جاءهم من الحق، وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة بلا ذنب إلا أنهم آمنوا بربهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٧٥، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥ - من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص١٧٨، «لباب النقول» ص١٢٦، ١٢٧، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٥٨ - ١٦١، ٨/ ١١٣.

٣ ـ أن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين ومن عادى المؤمنين فهو عدو لله.
٤ ـ تقرير أن ما جاء المؤمنين من عند الله ـ عز وجل ـ هو الحق، وتقرير صدق رسالته ﷺ.
٥ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتشريفهم بها.
٦ ـ أن على المؤمنين الصادقين في هجرتهم وجهادهم وفي إيمانهم البعد عن موالاة وموادة الكافرين فإن موالاتهم تنافي الإخلاص لله في هذه الأعمال ولا تجتمع معها، والتحذير لمن فعل ذلك وأنه عين الضلال عن سواء السبيل.
٧ ـ علم الله عز وجل المحيط بما يخفيه العباد في قلوبهم وما يعلنونه.
٨ ـ تربص الكافرين الدوائر بالمؤمنين وظهور شدة عداوتهم لهم لو تمكنوا منهم وتطاولهم عليهم بأيديهم وألسنتهم بالسوء ومودتهم لو يكفرون.
٩ ـ لا أحد من الأقارب والأولاد وغيرهم ينفع أو يغني عن أحد يوم القيامة أو ينتصر له ويدفع عنه عذاب الله، بل يفصل بينهم، بل ويؤخذ لكل منهم حقه من الآخر.
١٠ ـ لا يجوز موالاة وموادة الكفار لقرابتهم.
١١ ـ علم الله ـ عز وجل ـ واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد فيجازي كلاً بما عمل، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن اتخاذ الكافرين أولياء، بعد ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ من الكتابة لهم، والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها، وذكر – عز وجل ما يهيج على عداوتهم من كفرهم، وإخراجهم للرسول – ﷺ – والمؤمنين، وتربصهم بالمؤمنين وغير ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يقتدى به في هذا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه من المؤمنين في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم، وإظهار العداوة لهم حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ «قد» حرف تحقيق، والخطاب للمؤمنين، والأسوة: القدوة، أي: قد كانت لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة طيبة، ومثل يحتذى في الخير والأمور الحسنة، لأن القدوة نوعان: قدوة حسنة طيبة، وقدوة سيئة خبيثة.

﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: في نبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام والذين معه من الأنبياء والمؤمنين في براءتهم من قومهم الكافرين وعدم موالاتهم ومحبتهم لهم.

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ «إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: حين قالوا لقومهم المشركين.

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ برآء: جمع بريء، يقال في جمعه: برآء، وأبرياء، وبريئون، جمع مذكر سالم. أي: إنا تبرأنا منكم فلسنا منكم ولستم منا.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وتبرأنا من عبادتكم ومن الذي تعبدونه من دون الله من المعبودات، فلا نعبد شيئاً منها، بل نعبد الله وحده.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: أنكرناكم، وأنكرنا دينكم وطريقتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لكم، ووجب علينا إظهار ذلك لكم ﴿أَبَدًا﴾ من الآن وعلى الدوام ما دمتم على الكفر.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ حتى للغاية، أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، بالإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وتعبدوه وحده.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«قول» مستثنى منصوب من قوله ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس لكم فيه أسوة، أو لا تتأسوا به في ذلك.

قال الطبري [١]: «إلا في قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

كما قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه [٢] حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه» [٣].

وفي هذا دلالة على فضل نبينا محمد - ﷺ - على إبراهيم وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام - لأن الله أمرنا بالاقتداء به - ﷺ - مطلقا فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] بينما استثنى بعض فعل إبراهيم لما أمرنا بالاقتداء به - عليه السلام.

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ الواو: حاليه و«ما» نافية أي: والحال أني لا أملك لك من الله من شيء.

و«من» في قوله ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى و«شيء» نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من الأشياء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، لا هداية ولا غير ذلك، ولا أقدر على شيء من ذلك، وإنما المالك لذلك كله والقادر عليه هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فأين من هذا الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء يطلبون منهم جلب النفع ودفع الضر، وإبراهيم خليل الرحمن يعلنها صريحة لأبيه وأقرب الناس إليه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٧.

(٢) كما قال تعالى عنه أنه قال: (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) [الشعراء: ٨٦].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٣٠، ٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥.

كما قال عز وجل لنبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١].

نسألك اللهم الهداية للحق والثبات عليه إلى أن نلقاك.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من تتمة كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه بعد أن أعلنوا البراءة من قومهم ومن معبوداتهم وإظهار العداوة والبغضاء لهم ما داموا على الشرك.

﴿رَّبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا.

﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: عليك اعتمدنا، وإليك فوضنا أمورنا في جلب النفع لنا ودفع الضر عنا مع تمام الثقة بك والبراءة من حولنا وقوتنا.

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: وإليك تبنا ورجعنا.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليك وحدك المرجع والمآل والمنقلب والمعاد في الدار الآخرة وفي جميع الأمور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يا ربنا لا تصيرنا ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والفتنة: الابتلاء والامتحان، وتكون في الخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: يا ربنا لا تصيرنا فتنة للذين كفروا بأن تسلطهم علينا بالقتل والأذى، أو بأن نواليهم ونوادهم، فيكونوا سبباً في فتنتنا عن ديننا أو بظهورهم علينا فيظنوا أنهم على حق ونكون فتنة لهم.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ﴾ أي: واغفر لنا يا ربنا، بستر ذنوبنا عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها - كما جاء في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وقوله - عز وجل -: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيز» و«الحكيم» من أسماء الله - عز وجل - كل منهما على وزن «فعيل»، يدل «العزيز» على أن له عز وجل العزة بأنواعها الثلاثة: عزة القهر، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

---

(١) سبق تخريجه.

ويدل «الحكيم» على أن له – عز وجل – الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأن له الحكمة، بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

وقد أكد عز وجل كمال عزته وحكمه وحكمته – إضافة إلى كون هذين الاسمين جاءا على صيغة المبالغة بـ «أن» المؤكدة، ويكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «أنت».

وناسب ختم الآية بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مع أنه يلي قوله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ – والله أعلم – ليناسب قوله قبل ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

هذا تأكيد لما سبق في قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية.

واللام في قوله ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فتكرار هذه الجملة تأكيد، وتصديرها بالقسم تأكيد آخر، وقال هنا: «كان» وفي الآية الأولى «كانت»، وذلك – والله أعلم – للتنصيص في الآية الأولى على أن لهم بإبراهيم والذين معه أسوة حسنة في البراءة من الكافرين، وأما قوله في الآية الثانية ﴿كَانَ﴾ ففيه إشارة إلى أن لهم فيهم أسوة عامة في طاعة الله تعالى وترك معصيته.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ «لمن» جار ومجرور بدل من قوله «لكم» و«من» اسم موصول، أي: للذي يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه. قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمة.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ أي: ويرجو الثواب في اليوم الآخر، ويخاف العقاب.

واليوم الآخر: يوم القيامة، لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ تأكيد وتهييج أيضا لأخذ القدوة من إبراهيم والذين معه في البراءة من الكافرين، وأن من كان يرجو الله واليوم الآخر لا بد أن يكون كذلك.

وقرن – عز وجل – بين رجائه واليوم الآخر – كما يقرن عز وجل كثيراً بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن اليوم الآخر يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو من أعظم ما يحمل الإنسان على العمل ومحاسبة النفس، كما رُويَ عن عمر رضي الله عنه قوله: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى» أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض، ولتهالكوا في الشهوات والمعاصي إذ لا وازع ولا رادع.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة الله – عز وجل – وأمره ونهيه بقلبه وجوارحه، وقوله وفعله، وذلك بموالاة الكافرين وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الغني» و«الحميد» كل منهما من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل «الغني» على كمال وسعة غناه، وأنه غني عن خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»[1].

و«الحميد» يدل على أنه – عز وجل – المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده كما قال عز وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم[2].

وقد قرن عز وجل بين اسميه «الغني» و«الحميد» في مواضع عدة من القرآن الكريم. إشارة إلى أنه عز وجل المحمود على غناه لكرمه العميم وجوده العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ – من حديث أبي ذر – رضي الله عنه.

(٢) انظر «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب» ص٢١٣.

ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤، الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

الفوائد والعبر:

١ ـ ينبغي أن يكون للمؤمنين قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه في إخلاصهم العبادة لله ـ عز وجل ـ وبراءتهم من قومهم المشركين ومن معبوداتهم وكفرهم بهم وإظهار عداوتهم وبغضهم أبداً حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه.

٢ ـ لا يتأسى ولا يقتدى في إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه وهو مشرك لأن الاستغفار للمشركين لا يجوز وإنما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه عن وعد له بذلك فلما تبين له عداوته لله واستمراره على الشرك تبرأ منه.

٣ ـ أن الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله ولهذا قال إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لأبيه «وما أملك لك من الله من شيء».

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لأوليائه المؤمنين ـ وتشريفهم بها.

٥ ـ وجوب إخلاص العبادة لله وحده والتوكل عليه والإنابة إليه أسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه.

٦ ـ أن المصير والمرجع والمآب والمآل إلى الله ـ عز وجل ـ فيجازي كلاً بعمله.

٧ ـ مشروعية سؤال الله ـ عز وجل ـ السلامة من فتنة الذين كفروا في الدين أو القتل أو غير ذلك، وسؤال الله ـ المغفرة.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة، والحكم النافذ، والحكمة البالغة.

٩ ـ تأكيد وجوب أخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم لمن كان يرجو الله والثواب يوم القيامة، وذلك تعظيماً لخطر الشرك، وتحذيراً منه

١٠ ـ التهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله وخالف أمره ووالى أعداءه وبيان غنى الله ـ عز وجل ـ عنه وأنه سبحانه الغني عن خلقه.

١١ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الغني» و «الحميد» وأنه سبحانه الغني عن جميع الخلق المغني لهم، المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده.

١٢ ـ أن الغنى إذا لم يصاحبه جود وكرم وبذل منه يحمد عليه صاحبه فلا قيمة له، بل هو نقمة ووبال على صاحبه.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله – عز وجل – في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين وموادتهم – مطلقا – وحيث إن ترك موالاة الكافرين إذا كانوا من الأقربين أمر ليس بالسهل على النفوس لم يقنط – عز وجل – المؤمنين، بل فتح لهم باب الرجاء في إيمان هؤلاء الكافرين فتعود المودة بينهم وبينهم، فقال عز وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثم بين عز وجل من لم يتناولهم النهي ممن يجوز الإقساط إليهم وبرهم من الكافرين ومن لا تجوز موالاتهم مطلقا في الآيتين بعد ذلك.

قال ابن القيم [(١)]: «لما نهى الله سبحانه في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله – سبحانه – أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة».

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ «عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق – كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب [(٢)]

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر [(٣)]

فيكون المراد بالرجاء هنا ما يقوم في قلوب المخاطبين: أي: يرجى أن الله يجعل بينكم

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٣.
(٢) البيت لهدبة بن خشرم، وهو في «ديوانه» ص٥٤.
(٣) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» ص ٣٥١.

وبين الذين عاديتم منهم مودة. أو ترجون أن الله يجعل بينكم وبينهم مودة ويحتمل أن هذا وعد من الله عز وجل أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الكفار مودة بأن يسلم هؤلاء الكفار. وتكون «عسى» هنا بمعنى الوعد من الله عز وجل بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة»[1].

والمعنى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين كفار مكة الذين نهيتم عن موالاتهم وموادتهم وأمرتم بعداوتهم مودة، وذلك بأن يسلموا، وهكذا حصل فآمن كثير من أهل مكة يوم الفتح وقبله وبعده، منهم أبو سفيان وغيره.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب، بإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والتأليف بين القلوب المتنافرة والمتناحرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولهذا قال - ﷺ -: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي»[2]. وقد أحسن القائل:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا[3]

ولهذا فإن من الحكمة بل من المأمور به شرعاً أن لا يفرط الإنسان بالعداوة ولا بالمحبة، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[4].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله عز وجل يدلان على أنه عز وجل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة - إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/ ٤٢ - من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم - رضي الله عنه.

(٣) البيت لقيس بن الملوح «مجنون ليلى» انظر «ديوانه» ص٣١٥.

(٤) أخرجه الترمذي في البر - الاقتصاد في الحب والبغض ١٩٩٧ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب. وصحح وقفه على علي رضي الله عنه».

ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ويرحمهم، وأن يهدي من يشاء من كفار مكة وغيرهم للإيمان، ويغفر لهم ما قد سلف، كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ «لا» نافية، ومعنى ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لم يقاتلوكم لأجل دينكم وبسببه ﴿وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: ولم يضطروكم إلى الخروج من دياركم لأجل دينكم أيضا. ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ أي: تحسنوا إليهم وتصلوهم ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: تعدلوا إليهم ومعهم من «أقسط» الرباعي، بمعنى: عدل وأنصف.

و«أن» والفعل بعدها في قوله ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾

والتقدير: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين من الكفار ولم يخرجوكم من دياركم ولا عن الإقساط إليهم، كالنساء والضعفة وغيرهم، أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إليهم وصلتهم. قال تعالى في الوالدين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة[١]، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[٢].

وفي رواية عن عبد الله بن الزبير – رضي الله عنه – قال: «قدمت قتيلة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: صناب[٣] وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها»[٤].

وأيضا لا ينهاكم الله عن العدل معهم وفيهم، بل ذلك واجب عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: ٢]،

---

(١) أي مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ـ الهدية للمشركين ٢٦٢٠، ومسلم في الزكاة – فضل النفقة والصدقة على الأقربين ١٠٠٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٦٨، وأحمد ٦/ ٣٤٤، ٣٤٧.

(٣) الصناب – بالصاد المهملة والنون: الخردل المعمول بالزيت وهو صباغ يؤتدم به.

(٤) أخرجها أحمد ٤/ ٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل واجب مع كل أحد. والإحسان مشروع لكل ذي كبد رطبة حتى للكلاب فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[1].

ويؤخذ من الآية الرد على الغلاة من الخوارج وغيرهم الذين يستبيحون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين. وقد قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[2] وقيل له ﷺ: ادع على المشركين؟ قال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»[3].

ولما استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ـ جبلين بمكة ـ قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[4].

ودعا ﷺ لقومه وهم يوقعون به وبأصحابه صنوف الأذى فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[5].

ولهذا اعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة بسبب أنه دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً أمن أهلها وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[6] مع ما لقيه منهم ﷺ من المحادة والعناد.

وزار ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه لما مرض وقعد عند رأسه وقال له أسلم فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[7].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: إن الله يحب المقسطين الذين يعدلون فيما لهم وعليهم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٦، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠.
(٢) أخرجه النسائي في مناسك الحج ٣٠٥٧ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والبر ١٧٩٥ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٣٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.
(٦) أخرجه البيهقي في «سننه» ١١٨/٩ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.
(٧) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

وفي حكمهم بين الناس، كما قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[(١)].

وفي الآية إثبات المحبة لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ويفهم من الآية أنه - عز وجل - لا يحب القاسطين الظالمين، بل يبغضهم.

كما يؤخذ منها سماحة الدين الإسلامي في معاملة الآخرين حتى غير المسلمين، وهذا هو الذي جعل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يتحاكم مع اليهودي الذي وجد درعه عنده إلى القاضي شريح ولم يكن لدى علي ـ رضي الله عنه ـ بينة، فقيل له يحلف اليهودي ويأخذ الدرع، فقال: هو وذاك فلما رأى اليهودي أن خليفة المسلمين تحاكم معه إلى القضاء اعترف بأن الدرع لعلي ـ رضي الله عنه ـ وأعلن إسلامه[(٢)] وبهذا الخلق وهذا العدل فتح السلف قلوب الناس للإسلام.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾

في هذه الآية تصريح بما فهم من الآية قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، وتأكيد للنهي في قوله في مطلع السورة ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وحصر للنهي فيها في النهي عن موالاة الذين قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.

قوله: ﴿وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: عاونوا وساعدوا على إخراجكم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] أي: وإن تعاونا عليه.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ﴾ أي: عن توليهم، أو عن موالاتهم ومناصرتهم، وعن أن تكونوا لهم أولياء ونصراء.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، «يتولهم» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ للذين يتولون الكافرين من المؤمنين، وأشار

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٨٤ ـ ١٨٥.

إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لأمرهم، ويحتمل أن يراد بالإشارة نفس الكفار. ويحتمل أن يراد بها الطائفتين معاً الكفار ومن يتولاهم من المؤمنين فالكفار ظالمون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومن والاهم فهو منهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان وهؤلاء المذكورون، وضعوا الولاية في غير موضعها وخالفوا أمر الله.

وأظلم الظلم الشرك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإنما كان الشرك أظلم الظلم لأن حق الله - عز وجل - أوضح الحقوق وأبينها خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، فمن صرف حق الله وهو العبادة لغير الله فهو من أظلم الظالمين.

الفوائد والعبر:

١ - ترجية الله - عز وجل للمؤمنين ووعده لهم بأن يجعل بينهم وبين من عادوهم من أهل مكة بسبب كفرهم مودة وذلك بأن يؤمن هؤلاء الكفار أو بعضهم فتعود الموالاة بينهم وهكذا حصل.

٢ - تأكيد عدم جواز موالاة ومودة الكافرين.

٣ - قدرة الله - عز وجل - التامة على كل شيء ومن ذلك تقليب القلوب وإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار.

٤ - إثبات اسمين من أسمائه - عز وجل - وهما «الغفور» و «الرحيم» ومغفرته - عز وجل - التامة ورحمته الواسعة، ولهذا هدى كثيراً من المشركين إلى الإسلام بمغفرته ورحمته.

٥ - وجوب الإقساط والعدل مع الكفار غير المحاربين ممن لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم، وجواز الإحسان إليهم وبرهم بل ذلك مما يؤجر عليه.

٦ - إثبات المحبة لله - عز وجل - وأنه يحب المقسطين العادلين، ونفي محبته عن الظالمين الجائرين.

٧ - تأكيد وحصر النهي في الموالاة في النهي عن موالاة المقاتلين للمؤمنين في الدين المخرجين لهم من ديارهم المظاهرين على إخراجهم.

٨ - التحذير من موالاة الكافرين الظالمين للمؤمنين في قتالهم لهم وإخراجهم من ديارهم وأن من والاهم فهو ظالم مثلهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

سبب النزول:

عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما قالا: «لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مها جرات، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ونسوة أخر فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾»[(١)].

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ أي: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات، والهجرة هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الكفر.

ومما يؤسف له أنه قد انعكس الحال فأصبح المسلم في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع أن يظهر شعائر دينه بينما يستطيع ذلك في كثير من بلاد الكفر ـ والله المستعان.

والهجرة من مكة كانت واجبة قبل فتحها أما بعده فقد صارت دار إسلام قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[(٢)] أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها، لأنها صارت دار إسلام ولله الحمد والمنة.

﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختبروهن، وذلك بسؤالهن عن سبب خروجهن، وهجرتهن

(١) أخرجه مطولاً ـ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ البخاري في الجهاد ـ المصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وابن إسحاق في السيرة انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٢١، والبيهقي في الجزية ٩/ ٢١٨، وأخرجه مختصراً أبو داود في الجهاد ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، وأحمد ٤/ ٣٢.

(٢) سبق تخريجه.

وتحليفهن إن احتيج إلى ذلك ليتبين صدق إيمانهن، ولهذا قال بعده ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

فعن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف امتحان رسول الله - ﷺ - النساء؟ قال: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجت - من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت - رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت - التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت - إلا حباً لله ورسوله»[(١)].

ورُوِيَ أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله - ﷺ - له عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(٢)].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فإن علمتموهن صادقات في إيمانهن، وفي هجرتهن، خرجن حباً لله ورسوله وفراراً بدينهن - حسب ما يظهر لكم - إذ لا يطلع على البواطن إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. فليس لنا إلا الظاهر، وأمر السرائر إلى من يعلم السر وأخفى.

وفي الحديث «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(٣)].

لكن قد يستدل بما يظهر من الأقوال والأفعال على ما في الباطن.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير في كلامه على الآية ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال[(٤)]: «وفيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً».

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار. وإذا كانت المتزوجة لا ترد إلى زوجها فمن باب أولى أن لا ترد غير المتزوجة.

فهذه الآية مخصصة لما جاء في صلح الحديبية من الشرط: «على أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». ولهذا لما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - رضي الله عنها - مهاجرة بعد هذا الصلح وبعد نزول هذه الآية لم يرجعها رسول الله ﷺ وكذا غيرها من النساء اللاتي هاجرن في تلك المدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٥ - ٥٧٦.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا هن يحللن لهم وقد آمنَّ وهم كفار.

﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: ولا هم يحلون لهن وهم كفار وهن مؤمنات. فلا تحل مؤمنة لكافر، ولا يحل كافر لمؤمنة، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]. فحرم الله عز وجل بهذه الآية المؤمنات على المشركين، وكان جائزاً في أول الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. وكانت زينب - ابنة النبي ﷺ - تحت أبي العاص بن الربيع، وكان مشركاً، فأمره الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يبعث بها إليه، فأقامت في المدينة بعد وقعة بدر إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع فردها إليه رسول الله ﷺ.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله - ﷺ - رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها»؟ فقالوا: نعم. وكان رسول الله - ﷺ - أخذ عليه أو وعده أن يُخلي سبيل زينب إليه. وبعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بها» [(١)].

فلما قدم أبو العاص مكة، وفَى له بذلك وصدَّقه فيما وعده، فبعثها إلى رسول الله - ﷺ - مع زيد بن حارثة - رضي الله عنه -، فأقامت في المدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع زمن الحديبية [(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله - ﷺ - رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئاً».

وفي رواية: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين»، وفي رواية «بسنتين، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً» [(٣)].

وعن الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله -

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٩٢، وأحمد ٦/ ٢٧٦.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٣٣٠ - ٣٣٤، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٣٧ «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق - إلى متى ترد إليه امرأته إذا أسلم بعدها ٢٢٤٠، والترمذي في النكاح - ما جاء في الزوجين يسلم أحدهما ١١٤٣، وابن ماجه في الطلاق - الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ٢٠٠٩، وأحمد ١/ ٢٦١. وصححه، وقال الترمذي: «ليس بإسناده بأس».

ﷺ - رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد»[١].

قال الخطابي[٢]: «قال محمد بن إسماعيل: حديث ابن عباس أصح في هذا الباب من حديث عمرو بن شعيب».

وقال الإمام أحمد بعد روايته لحديث عمرو بن شعيب: «هذا حديث ضعيف، أو واهٍ، ولم يسمعه الحجاجِ من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد العزرمي، والعزرمي حديثه لا يساوي شيئاً. والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول».

وقد اختلف أهل العلم في بقاء حكم النكاح إذا أسلم أحد الزوجين دون الآخر. فذهب جمهور أهل العلم إلى أن النكاح ينفسخ، منهم من قال بمجرد إسلام أحدهما. وهو رواية عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب. ومنهم من قال لا ينفسخ النكاح إلا بانقضاء العدة، منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه. وبه قال أبو حنيفة إذا كان الزوجان في دار الإسلام أو في دار الحرب[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النكاح لا ينفسخ بمجرد إسلام أحد الزوجين، سواء فرقت بينهما الهجرة أو لم تفرق. واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم مستدلين بحديث ابن عباس في رده ﷺ ابنته زينب على أبي العاص، وقد أسلمت قبله بسنين، وما في معناه من الآثار.

قال ابن تيمية: «وأما القول بأنه بمجرد إسلام أحد الزوجين المشركين تحصل الفرقة، قبل الدخول أو بعده فهذا في غاية الضعف، فإنه خلاف المعلوم المتواتر من شريعة الإسلام، فإنه قد علم أن المسلمين الذين دخلوا في الإسلام كان يسبق بعضهم بعضا بالتكلم بالشهادتين، فتارة يسلم الرجل وتبقى المرأة مدة ثم تسلم، كما أسلم كثير من

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨ - وضعفه، وابن ماجه في النكاح ٢٠١٠.

(٢) انظر «سنن أبي داود» ٢/ ٦٧٦.

(٣) انظر «المدونة» ٢/ ٢٩٨، ٣٠٢ - ٣٠٣، «الأم» ٤/ ١٩٣، ٢٧٠ - ٢٧١، ٥/ ٤٤ - ٤٥ «أحكام القرآن» للشافعي ٢/ ٦٩، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص٣٣٠ - ٣٣١، رواية النيسابوري ١/ ٢١٧ «الإشراف على مذاهب العلماء» ٤/ ٢١٠، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١١٤ «المحلى» ٧/ ٣١٤، «المسائل الفقهية» ٢/ ١٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٧٨٧، «زاد المسير» ٨/ ٢٤٤، «المغني» ٦/ ٦١٤ - ٦١٦، «فتح القدير» لابن الهمام ٣/ ٤٢٢، «تبيين الحقائق» ٢/ ١٧٥، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠، «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٣٥ - ٢٥١، «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٩١ - ١٩٢، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٦.

نساء قريش وغيرهم قبل الرجال...»[1].

وقال ابن القيم[2]: «فإنه لا يعرف أن رسول الله - ﷺ - جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه وقد رد النبي - ﷺ - ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة. وأما قوله في الحديث: «كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين» فوهم إنما أراد بين هجرتها وإسلامه.

قال: وأما مراعاة زمن العدة فلا دليل عليه من نص ولا إجماع، ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة، لم تكن فرقة رجعية، بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة، ولكن الذي دل عليه حكمه - ﷺ - أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح».

واستدل ابن القيم على هذا أيضاً بما رُوِيَ عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال في الزوجين الكافرين يسلم أحدهما: «هو أملك ببضعها ما دامت في دار هجرتها» وفي رواية: «هو أحق بها ما لم يخرج من مصرها».

قال ابن القيم: «ولو لا إقراره - ﷺ - الزوجين على نكاحهما، وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية، وزمن الفتح لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير اعتبار عدة، لقوله ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبب الفرقة تعقبه الفرقة كالرضاع والخلع والطلاق - وبعد أن ذكر من قال به من السلف وغيرهم، وأنه إحدى الروايتين عن أحمد قال: «ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لم يحكم بتعجيل الفرقة».

ثم استدل ابن القيم بإسلام امرأة صفوان بن أمية قبل إسلامه بنحو شهر ولم يفرق

---

(١) انظر «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٥١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠.

النبي - ﷺ - بينهما [(١)]، وبإسلام أم حكيم قبل زوجها عكرمة بن أبي جهل، وإسلام أبي سفيان قبل امرأته هند، وإسلام حكيم بن حزام قبل امرأته وغيرهم - رضي الله عنهم - ولم يفرق النبي - ﷺ - بين أحد منهم وزوجته. كما استدل بإسلام نصرانية قبل زوجها في عهد عمر - رضي الله عنه - ولم يفرق بينهما [(٢)].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ الضمير يعود إلى أزواجهن من الكفار، و«ما» موصولة، أي: وأعطوهم الذي أنفقوه، وغرموه من المهور، وذلك للعهد الذي بينهم وبين المسلمين فلا يجمع لهم بين فسخ أزواجهم منهم وتغريمهم ما دفعوا لهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: ولا حرج عليكم في نكاحهن والنكاح: لغة الضم والجمع، وشرعاً: عقد الزوجية الصحيح. ويطلق على العقد، وعلى الوطء. والمراد به هنا: العقد، أي: ولا حرج ولا إثم عليكم في الزواج بهن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: إذا أعطيتموهن مهورهن فهن كغيرهن من النساء، لا يجوز الاستهانة بمهورهن وحقوقهن وسُمي المهر أجراً لتأكيد وجوبه لأنه في مقابلة الانتفاع بالبضع. وجواز نكاحهن مشروط بانقضاء عدتهن، وتوفر بقية شروط النكاح من الولي والشاهدين وغير ذلك.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتشديد السين، وقرأ الباقون بتخفيفها.

و(الكوافر): جمع كافرة.

والمعنى: لا تتزوجوا الكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأيضاً لا تبقوا على نكاح من كان عندكم منهن بل فارقوهن وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أنه لما أنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى صفوان ابن أمية» [(٣)].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤.
(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٧ - ١٤٠ وانظر أيضاً ١٣٤ - ١٣٥.
(٣) سبق تخريجه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٣ - ٥٨٤. «السيرة النبوية» ٢/ ٣٢٧.

كما طلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص[١].

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: (وسلوا) وقرأ الباقون: (واسألوا).

أي: واطلبوا الذي أنفقتموه من المهور على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطلبوا هم الذي أنفقوه على أزواجهم اللاتي هاجرن إليكم أيها المسلمون، فلهم حق المطالبة في ذلك ويجب عليكم إعطاؤهم ذلك لقوله ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾، فالسؤال مشروع في حق هؤلاء وهؤلاء لما أنفقوه على أزواجهم لكن الأمر بإيتاء ذلك خص به المؤمنون في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل.

قال السعدي[٢]: «وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر».

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ﴾ الإشارة لما سبق في الآية من عدم رد النساء المهاجرات إلى أزواجهن إذا علمنا إيمانهن ووجوب إعطائهم ما غرموه عليهن من المهور، وجواز نكاهن بشروطه وتحريم الكافرات على المؤمنين، وجواز مطالبة الذين ذهبت أزواجهم من الفريقين للفريق الآخر بما أنفقوا عليهن. وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيماً لهذه الأحكام وتأكيداً لوجوب امتثالها.

وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم كوني وحكم شرعي، وحكم جزائي، والمراد ب«حكم الله» في هذه الآية الحكم الشرعي. ومن الحكم الكوني قول ولد يعقوب عليه السلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ﴾ [يوسف: ٨٠]. والحكم الجزائي في الآخرة.

والمعنى: هذه الأحكام الشرعية في الآية هي حكم الله – عز وجل – الذي حكم به ويحكم به بينكم وبين الكفار، مما يتعلق بهذا الصلح صلح الحديبية مما سبق نزول الآية ووقت نزولها، وفيما يستقبل، ولهذا جاء التعبير بالمضارع ﴿يَحْكُمُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله – عز وجل – يدلان على أنه عز وجل ذو العلم الواسع، والحكم النافذ والحكمة البالغة، ومن علمه عز وجل وحكمه وحكمته شرع هذه الأحكام العظيمة بين خلقه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٤ – ٥٨٥.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٥٩.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين، قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها»[1]

قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: وإن ذهبت بعض زوجاتكم إلى الكفار، ولم يردوا إليكم ما أنفقتموه عليهن، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: أصبتم غنيمة في قتالكم الكفار الذين لا عهد بينكم وبينهم، ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي: أعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين دون عوض من الكفار، أي: أعطوهم من الغنيمة مثل الذي أنفقوا من المهور عليهن.

و«عاقبتم» على هذا تكون من المعاقبة للكفار المقاتلين بقتلهم وسلب أموالهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو الأظهر.

وذهب بعض أهل العلم منهم عائشة ـ رضي الله عنها والزهري إلى أن المعنى: أن يرد المؤمنون إلى من ذهبت زوجته من المؤمنين من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ـ الشروط في الجهاد ٢٥٨٢.

(٢) سبق تخريجه عن عائشة ـ رضي الله عنها، وأخرجه عن الزهري الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٠. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٦.

قال ابن كثير[١] بعد ما ذكر القولين: «وهذا ـ يعني القول بأنه يعطى من الغنيمة ـ لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى – يعني قول الزهري – وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أوامر واجتناب ما بعده من نواه يعد من مقتضيات الإيمان وعدم ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

٢ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من إيمانهن حسب الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله ـ عز وجل.

٣ ـ عدم جواز إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد معرفة إيمانهن لأنهن لا يحللن لهم ولا هم يحلون لهن.

٤ ـ وجوب إيتاء الأزواج الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٥ ـ لا حرج ولا إثم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد انقضاء عدتهن من أزواجهن الكفار بعد إعطائهن مهورهن.

٦ ـ تحريم الإمساك بعصم الكوافر، وتزوج الكافرات.

٧ ـ أن للأزواج من المؤمنين مطالبة الكفار بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي ذهبن للكفار، كما أن للأزواج الكفار مطالبة المؤمنين بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٨ ـ أن هذه الأحكام المذكورة في الآيات من أحكام الله الشرعية التي حكم الله بها بين عباده.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «العليم» و «الحكيم» وصفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ والحكم التام النافذ والحكمة البالغة.

١٠ ـ يجب إعطاء من فاتتهم زوجاتهم إلى الكفار من الغنيمة إذا لم يعطهم الكفار عوضاً عما أنفقوه عليهن.

١١ ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٢١.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها» للتنبيه. و«النبي» هو نبينا محمد ﷺ و«ال» فيه للعهد الذهني، أي النبي المعهود المعروف. و«النبي» مشتق من النبأ، لأنه مُنبأ، أي: مُخبَر من الله – عز وجل –، ومُنبِئٌ، أي: مُخبِر لقومه. ومشتق أيضاً من النبوة، وهو المكان المرتفع، لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وتصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء يدل على التنبيه والعناية والاهتمام. وقد خص الله – عز وجل – نبينا محمداً ﷺ بندائه بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له – ﷺ – وتذكيراً له بنعمة الله – عز وجل – عليه بالنبوة والرسالة، بينما ينادي – عز وجل – سائر الأنبياء بأسمائهم يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى بن مريم، ونحو ذلك.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله وبما جاء عن الله ورسوله.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: يعاهدنك على هذه الأمور المذكورة، وهذه الشروط.

والمبايعة للرسول – ﷺ – مبايعة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك أن المجازي على الوفاء بهذا العهد والعقد هو الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وإنما أضيفت المبايعة للرسول ﷺ لأنه هو المباشر لأخذ البيعة منهم، وإلا فمبايعته – ﷺ – ومعاهدته على الدخول في الإيمان، أو على الجهاد وغير ذلك هي مبايعة ومعاهدة لله عز وجل.

عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن

تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[1].

كما أن دخول الإنسان في الإيمان عهد بينه وبين ربه يوجب عليه القيام بحقوقه – عز وجل – وجزاؤه على الله – عز وجل – قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: على أن لا يشركن بالله شيئاً من الشرك، أو شيئاً من الأشياء.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله وصرف شيء من حقوق الله لغيره، وتسوية بالله كما ذكر الله عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

و«شيئا» نكرة في سياق النفي فتعم كل شرك صغيراً كان أو كبيرا، خفياً كان أو جليا، وتعم كل شيء أشرك به مع الله، أياً كان ذلك الشيء، ومهما كان صغيراً أو كبيراً قليلاً أو كثيراً.

أي: يبايعنك ويعاهدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً من الأشياء، ولا شيئاً من الشرك أياً كان ومهما كان، بل يخلصن العبادة لله وحده.

وبدأ بأخذ العهد عليهن بالبراءة من الشرك، لأن الشرك أعظم الذنوب ولا يقبل معه أي عمل، ولا يغفر لمن مات مصراً عليه.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ السرقة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: سارقه النظر - إذا نظر إليه بخفية.

والسرقة شرعاً: أخذ مبلغ مخصوص من المال المحترم من مالكه أو نائبه، خفية من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة.

ولهذا فإن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها إن كان مقصراً في نفقتها قدر كفايتها لأن لها

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٩، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٦٦.

حقاً في مال زوجها. وفي حديث هند بنت عتبة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي: ولا يطأهن غير أزواجهن، لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا: قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية»[2].

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي: ولا يقتلن أولادهن من بنين وبنات سواء بعد ولادتهم خشية الفقر أو العار أو غير ذلك – كما كان يفعله أهل الجاهلية قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

أو بقتلهم وهم أجنة في بطونهن بأن تلقي الواحدة منهن نفسها من مكان مرتفع أو تتعمد حمل شيء يقتل ونحو ذلك لأجل إسقاط حملها، أو بإجراء عملية لإجهاض حملها سواء كان ذلك مخافة الفقر أو العار، أو لإراحة نفسها منه، أو لغير ذلك من الأغراض الفاسدة المحرمة. فهذا كله من قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ البهتان في الأصل: الكذب، وسمي الكذب بهتاناً لأنه يبهت ويحير من رُمي به، كما أنه يبهت الكذاب نفسه في النهاية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ـ القضاء على الغائب ٧١٨٠، ومسلم في الأقضية ـ قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة – رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي: يختلقنه كذبا.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: يحملنه بين أيديهن في بطونهن، ويلدنه بين أرجلهن مع فروجهن. والبطن والفرج كل منهما بين اليدين والرجلين. والمراد: ولا يأتين بحمل يلدنه وينسبنه كذباً إلى أزواجهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه الله على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»[(١)].

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: ولا يعصينك في فعل معروف تأمرهن به. والمعروف: ما تعارف الناس على حسنه وأمر به الشرع، ومن ذلك ترك النياحة على الميت – كما سيأتي في الحديث في مبايعته ﷺ. وقد قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(٢)].

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: فعاهدهن على الإسلام، وما أعده الله لمن أسلم منهن من الحياة السعيدة والجزاء الحسن في الجنة. كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[(٣)].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلب لهن المغفرة من الله لما قد يحصل منهن من سهو وخطأ وتقصير – مما لا يسلم منه البشر غالباً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لمن شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وهكذا بايع رسول الله – ﷺ – المؤمنات، كما أمره الله – عز وجل – فعن عروة بن

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق – إذا شك في الولد ٢٢٦٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز – ليس منا من ضرب الخدود ١٢٩٧، ومسلم في الإيمان – تحريم ضرب الخدود ١٠٣، والنسائي في الجنائز ١٨٦٠، والترمذي في الجنائز ٩٩٩، وابن ماجه في الجنائز ١٥٨٤ – من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٢ ـ من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه.

الزبير أن عائشة – رضي الله عنها – أخبرته أن رسول الله – ﷺ – كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله – ﷺ –: «قد بايعتك»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»[(١)].

وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: «أتيت رسول الله – ﷺ – في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» ولم يصافح منا امرأة»[(٢)].

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى»[(٣)].

وفي رواية عن أميمة أنها دخلت على رسول الله – ﷺ – في نسوة، فقلن: «يا رسول الله ابسط يدك نصافحك. فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن» فأخذ علينا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: «فيما أطقتن واستطعتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا»[(٤)].

وعن سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله – ﷺ – قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار، قالت: «جئت رسول الله – ﷺ – فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف – قال: «ولا تغشُشن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله – ﷺ – ما غش أزواجنا؟ فسألته، فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩١، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي في السير – ما جاء في بيعة النساء ١٥٩٧، وابن ماجه في الجهاد – بيعة النساء ٢٨٧٤، وأحمد ٦/ ٣٥٦. وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٢٢ عن إسناد أحمد «هذا إسناد صحيح».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٩٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٧.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ – ٥٩٩.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٣٧٩ – ٣٨٠، ٦/ ٤٢٢ – ٤٢٣، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٤٩ ترجمة سلمى بنت قيس.

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون، قالت: «أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي - ﷺ - يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني قولي أيْ بنية: نعم، فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن»[١].

وعن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله - ﷺ - فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ونهانا عن النياحة فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان - أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»[٢].

وكان - ﷺ - يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد[٣] تأكيداً لذلك.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله - قال: «فتصدقن» قال: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»[٤].

وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم» - وقرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٥، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٩٤ ترجمة عائشة بنت قدامة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩٢، ومسلم في الجنائز - التشديد في النياحة ٩٣٦، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٧، والنسائي في البيعة ٤١٧٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ - ٦٠١.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٧٩، ومسلم في العيدين ٨٨٥، وأبو داود في الصلاة ١١٤١، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢١٣، ومسلم في الحدود - الحدود كفارات لأهلها ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩.

وفي رواية لابن إسحاق عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله – ﷺ – على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال «فإن وفيتم فلكم الجنة»[١].

قال القرطبي[٢]: «قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له، وتذكيراً له بنعمة الله ـ عز وجل ـ عليه بالنبوة وإشارة لفضله ﷺ على سائر الأنبياء.

٣ ـ مشروعية مبايعة النساء المؤمنات على الشروط المذكورة في الآية.

٤ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بالاستغفار للمؤمنات بعد مبايعتهن لما قد يحصل منهن من تقصير وترغيباً لهن وتثبيتاً.

٥ ـ في الشروط المذكورة في مبايعة المؤمنات في هذه الآية دلالة على شمول البيعة لفعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، لأن الله أخذ عليهن فيها الإيمان بالله وحده لا شريك له، واجتناب السرقة والزنا وقتل أولادهن، وألا يأتين بولد من الزنا ينسبنه كذبا لأزواجهن، وألا يعصين الرسول ﷺ فيما يأمرهن به من معروف وهذا شامل لكل ما جاء به الدين.

٦ ـ أن الشرك أعظم الذنوب لهذا جعل البعد عنه أول الشروط في البيعة، وأن الزنا والسرقة وقتل الولد والإتيان بولد من الزنا ونسبته للزوج ـ هذه من أكبر الكبائر لهذا خصها بالذكر.

٧ ـ أن الطاعة بالمعروف لقوله «ولا يعصينك في معروف».

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و«الرحيم» وإثبات صفة المغفرة التامة له عز وجل، والرحمة الواسعة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥١ – الأثر ١٨٨٧١.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٦.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

ختم الله – عز وجل – هذه السورة بما بدأها به وهو نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين تأكيداً لذلك وتحريضاً للمؤمنين على عداوة الكافرين.

قوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتركنون إليهم.

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: «المغضوب عليهم اليهود»(١).

والغضب ـ وإن كان من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، لكن كل من كفر وجحد شريعة الله فله نصيب من غضب الله عز وجل بقدر منزلته وهكذا كل عاص لله – عز وجل – له نصيب من ذلك بقدر معصيته.

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق يأسهم من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله – عز وجل – فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير يأساً كيأس الكفار، أي مثل يأس الكفار، أو كاليأس الذي يئسه الكفار.

ومعنى ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الذين ماتوا على الكفر ودفنوا في القبور من ثواب الآخرة، ومن كل خير، بعدما عاينوا في القبور أعمالهم السيئة ومصيرهم السيء، إذ ليس بعد الموت من مستعتب. وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة للأبرار، والنار للكفار، وبئس القرار.

ويحتمل أن المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من بعث أصحاب القبور، لأنهم ينكرون البعث بعد الموت. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. وفي ذلك إيذان بكفرهم وشدة يأسهم من الآخرة.

(١) كما في حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – «المغضوب عليهم» اليهود، و«الضالين» النصارى». أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، وأحمد ٤/ ٣٧٨ – ٣٧٩. وإسناده صحيح.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وترك المنهي عنه بعده.

٢ ـ نهي المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم وهم اليهود.

٣ ـ تأكيد حرمة موالاة غير المؤمنين فقد بدئت السورة بالنهي عن موالاة المشركين وختمت بالنهي عن موالاة اليهود المغضوب عليهم.

٤ ـ غضب الله ـ عز وجل ـ على اليهود ـ لتركهم الحق بعد معرفته.

٥ ـ كفر اليهود ويأسهم من ثواب الآخرة فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

تفسير سورة الصف

عن عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – قال: «قعدنا نفر من أصحاب رسول الله – ﷺ – فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله – ﷺ – حتى ختمها»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝﴾

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد وسورة الحشر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله ـ عز وجل – دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[2].

«لم» اللام حرف جر، و«ما» استفهامية حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لم تقولون الذي لا تفعلونه، أو لم تقولون شيئاً لا تفعلونه. وهذا إنكار من الله عز وجل على من يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل أو يعد وعداً ولا يفي به.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٢، والترمذي في تفسير سورة الصف ٣٣٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٣ – الأثر ١٨٨٨٠، والحاكم ٢/ ٦٩، ٢٢٩، ٤٨٧. وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١٠/ ٢٦٥، «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٠٦ – ٦٠٧.

قال القرطبي [1]: «قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله. أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خلفاً وكلاهما مذموم».

وفي قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تعريض بأن العافية لا يعد لها شيء، وأن السلامة غنيمة وأن الأولى أن لا يسأل الإنسان أو يتمنى أمراً قد لا يفي بفعله، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا تأكيد للإنكار عليهم و«كبر» بمعنى «عظم» و«مقتاً» منصوب على التمييز والتفسير، كقول القائل: كبر قولاً هذا القول ومعنى ﴿مَقْتًا﴾ أي: بغضاً.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «كبر»، و«ما» موصولة، أي: كبر مقتا عند الله قولكم الذي لا تفعلونه.

والمعنى: عظم بغضاً في حكم الله قولكم قولاً لا تفعلونه ولا تفون به.

والمقت: البغض الشديد، ولهذا قال عز وجل عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: أتانا رسول الله - ﷺ - في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمراً. فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٨٠.

كذبة»[١].

ويكفي في شناعة القول بلا فعل والوعد بلا وفاء أنه مبغض عند الله، ومن أخص صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣].

فالقول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أمر محرم لا يجوز، وليس من صفات المؤمنين بل من صفات المنافقين إذ الواجب الوفاء بالعهد والوعد، وإتباع القول بالفعل، وأن لا يقول الإنسان ما لا يفعل، فإن الله عز وجل أنكر على المؤمنين القول بلا فعل أشد الإنكار.

قال القرطبي[٤]: «وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها».

وفي حديث أبي موسى - رضي الله عنه -: «وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»[٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾

هذا ظاهر العلاقة في سبب النزول حيث سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فهو أشبه بالجواب على سؤالهم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي: الذين يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل. كما في حديث أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في الكذب ٤٩٩١، وأحمد ٣/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان - علامة المنافق ٣٤، ومسلم في الإيمان - بيان خصال المنافق ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٨.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٠.

الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين في مواجهة العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: كأنهم في اصطفافهم للقتال تجاه العدو ﴿بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: مثبت ملتصق بعضه ببعض، أي: ليس بينهم في صفوفهم ثغرات أو منافذ يدخل منها العدو، وقلوبهم مجتمعة على الحق ليس بينهم اختلاف.

ويؤخذ من هذا فضل الجهاد والمجاهدين، وأن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأن من أحب عباده إليه الذين يقاتلون في سبيله راصين صفوفهم كالبنيان المرصوص. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سئل النبي – ﷺ – أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»(٣).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(٤).

وعنه – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن علي أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٩، ومسلم الإيمان ٨٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٢٤، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٨٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٢٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله ـ عز وجل ـ بلسان المقال أو الحال أو بهما جميعاً.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ، وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وله الحكم التام النافذ بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

٣ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهمية الخطاب ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف والانتهاء عما نُهي عنه بعد هذا النداء.

٤ ـ الإنكار والتوبيخ لمن يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل وتأكيد حرمة ذلك وشدة بغض الله له.

٥ ـ وجوب إتباع القول بالعمل والحذر من صفات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

٦ ـ محبة الله ـ عز وجل ـ للمجاهدين في سبيله متراصة صفوفهم كالبنيان المرصوص مجتمعة قلوبهم على الحق، وفي هذا إثبات المحبة لله ـ عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وتحريض المؤمنين وحثهم على القتال في سبيله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

عاتب الله عز وجل المؤمنين، وأنكر عليهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ثم أتبع ذلك بذكر شيء مما جرى لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والمخالفة، تسلية للرسول - ﷺ - تجاه تكذيب قومه وأذاهم له، وترغيباً له بالصبر.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما قسم النبي - ﷺ - قسمة حنين قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي - ﷺ - فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»[(١)].

كما أن في ذلك تحذيراً للمكذبين من قومه ﷺ والسعيد من وعظ بغيره.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: واذكر حين قال نبي الله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - لقومه بني إسرائيل.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. والقوم هم الجماعة من الناس. ﴿لِمَ﴾ اللام حرف جر، و«ما» للاستفهام حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تُؤْذُونَنِى﴾ وفي هذا شيء من التلطف معهم. والأذى: ما يتأذى به الإنسان من قول أو فعل ومن ذلك قولهم عنه عليه السلام بأنه آدر، أي: منتفخ الخصيتين[(٢)]: ولهذا قال تعالى محذراً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ومن أذاهم له عليه السلام الصد عن دينه والمخالفة له ولدعوته ولهذا قال: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنكم قد تعلمون أني رسول الله إليكم علماً يقينياً، حقاً وصدقاً، أي: تعلمون صدقي فيما جئتكم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٥، ومسلم في الزكاة ١٠٦٢.

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٤، ومسلم في الفضائل ٣٣٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢١، وأحمد ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

به من الآيات الشرعية والكونية من عند الله - عز وجل - الدالة على صدق رسالتي إليكم. ولهذا استحق اليهود غضب الله لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

والرسول: هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي إضافة «رسول» إلى الله - عز وجل - تعظيم لشأن الرسول «موسى عليه السلام» فإن الرسول يعظم بعظم المرسِل له وفي قوله ﴿إِلَيْكُمْ﴾ تذكير لقومه بني إسرائيل بعناية الله بهدايتهم، والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

وفي قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ نوع من التلطف معهم واستعطاف قلوبهم ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: فلما عدلوا ومالوا عن اتباع الحق. والزيغ: الميل والعدول عن الحق مع معرفته والعلم به.

﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها وصدها عن الحق والهدى وجعلها محلا للشك والشرك والنفاق والحيرة والخذلان، ترى المنكر معروفاً والمعروف منكراً. وذلك أن الجزاء من جنس العمل، والسيئة تجر للسيئة بعدها كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فالسيئات والمعاصي يجر بعضها بعضاً، وبعضها إلى بعض أسرع من السيل إلى منحدره، مما يوجب البعد عنها والحذر منها.

وخص القلوب بالزيغ لأنها محل الصلاح والفساد من الجسد كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(١)].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وهذه عامة للفاسقين وغيرهم. لأن الله أرشد إلى الحق ودل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما وهب البشر من الأفئدة والأبصار والأسماع التي بها تقوم عليهم الحجة.

والقسم الثاني: هداية التوفيق والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل وهي المنفية عن الفاسقين في قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

و«الفاسقين» جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله وعن الصلاح إلى الفساد. ولهذا تسمى الفواسق الخمس بالفواسق، لأنها تخرج وتسعى للإفساد.

فجمع الله – عز وجل – لمن آذوا رسوله موسى عليه السلام وزاغوا عن الحق عقوبتين الأولى: إزاغة وإمالة قلوبهم عن الحق، والثانية: عدم هدايتهم له. وهتان العقوبتان لكل من زاغ ومال عن الحق من أمة محمد – ﷺ – من باب أولى – لوضوح الحق الذي جاء به – ﷺ – وفضل دينه على سائر الأديان، وفضله ﷺ على سائر الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

ذكر الله – عز وجل – ما جرى لموسى – عليه السلام ـ مع قومه، ثم أتبع ذلك بذكر ما جرى لعيسى – عليه السلام – مع قومه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر حين قال عيسى بن مريم عليه السلام لقومه ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

ويذكر عيسى بن مريم – غالباً – في القرآن الكريم منسوباً لأمه بينما يذكر بقية الأنبياء بلا نسبة ولا لآبائهم، وذلك للتذكير بعظيم قدرة الله – تعالى – في خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وذلك آية من آيات الله عز وجل.

وهو معدود في القرآن من ذرية إبراهيم عليه السلام ـ وإن كان ابن بنته ـ لأنه لا أب له، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآيات: ٨٣ – ٨٥].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

و(بنو إسرائيل) هم بنو يعقوب عليه السلام وذريته وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام.

﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾ إخبار وإعلام من عيسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل أنه مرسل من عند الله إليهم، وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة «رسول» إلى الله – عز وجل – تعظيم لشأن عيسى عليه السلام. وفي قوله: ﴿إِلَيۡكُم﴾ توكيد لعناية الله بهدايتهم والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ «مصدقاً» حال، أي: حال كوني ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: لما سبقني من التوراة، التي بشّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت به.

فرسالة عيسى عليه السلام تصديق لما جاء في التوراة من البشارة به، وتصديق لها بأنها حق، وهو وكتابه الإنجيل متمم للتوراة ولرسالة موسى عليهما السلام. وهكذا جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض.

﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحال كوني (مبشراً برسول) ونكر «رسول» للتعظيم. والمبشّر: المخبر بما يَسُر، والبشارة: الخبر السار. سميت بذلك أُخذاً من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنارت بشرته وظهر ذلك على أسارير وجهه.

﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، اسمه أحمد ومحمد قال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(١).

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: سمى لنا رسول الله – ﷺ – نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة» (٢). وفي رواية «ونبي الملحمة»(٣).

ويؤخذ من قوله ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، والشهادة له بالرسالة وأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبعده محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم.

وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل – باب في أسمائه ﷺ ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٥٥. وأخرجه أحمد ٥/ ٤٠٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجها أحمد ٤/ ٣٩٥، ٤٠٤ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[1].

وعن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[2].

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[3].

والمراد بدعوة إبراهيم حين قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهكذا شهد النجاشي برسالته ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة هجرتهم إلى الحبشة حيث قال النجاشي: «أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم..»[4].

وكما بشر عيسى عليه السلام في الإنجيل بمحمد – ﷺ – فقد بشر به موسى عليه السلام في التوراة، وأخذ الله العهد على النبيين بالإيمان به قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»[5].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما جاءهم الرسول المبشّر به محمد ﷺ «بالبينات» أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات من الأدلة الكونية والشرعية قال الكافرون من قومه من المشركين ومن أهل الكتاب ﴿هَٰذَا سِحْرٌ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/١٦٦ – قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/١٣٦: «هذا إسناد جيد».

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٣.

(٣) أخرجه أحمد ٥/٢٦٢.

(٤) أخرجه أحمد ١/٤٦١.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/١٣٦.

مُّبِينٌ﴾ أي: إن ما جاء به من الوحي ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر بين ظاهر في نفسه أنه سحر، ومبين أمر الذي جاء به أنه ساحر.

والسحر: عقد تعقد وينفث فيها، تؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني - كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهكذا دأب المكذبين للحق، ولدعاته من الرسل وأتباعهم عندما تعيى بهم الحيل أمام الحق الواضح الصريح، ولا يستطيعون له دفعاً فإنهم يلجؤون إلى مثل هذه التهم الباطلة من الرمي بالسحر ونحو ذلك[١]، فليتنبه لهذا الدعاة والمصلحون والموجهون، وليأخذوا منه العظة والعبرة فإن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى تحمل وصبر ومرابطة قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢].

ولقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود[٣]

الفوائد والعبر:

١ ـ تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وترغيبه في الصبر على أذى قومه بذكر ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والتكذيب.

٢ ـ تحذير المكذبين له ﷺ من سلوك طريق اليهود والنصارى في تكذيبهم لأنبيائهم وأذيتهم لهم.

٣ ـ أن اليهود عرفوا الحق وتركوه ولهذا استحقوا غضب الله عليهم لتمام قيام الحجة عليهم.

٤ ـ تلطف موسى عليه السلام مع قومه في الخطاب ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.

٥ ـ إثبات رسالة موسى وعيسى عليهما السلام وتشريفهما وجميع الرسل بإضافتهم إلى الله ـ عز وجل.

٦ ـ أن المعصية والسيئة تجر إلى ما هو أعظم وأكبر منها، وأن الجزاء من جنس العمل لقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

٧ ـ عدم توفيق الله للفاسقين الخارجين عن طاعته.

٨ ـ أن عيسى عليه السلام جاء مكملاً، ومصدقاً لرسالة موسى عليه السلام وللتوراة.

٩ ـ شهادة عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء بصدق رسالة محمد ﷺ والبشارة به.

١٠ ـ أن من أسمائه ﷺ «أحمد».

١١ ـ تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاءهم به من الآيات البينات الشرعية والكونية ووصفهم لما جاءهم به بأنه سحر مبين وهكذا دأب المكذبين للحق.

---

(١) كما جعل كثير من شياطين الإنس والجن الاتهام للأبرياء بالعين وسيلة للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فإذا أرادوا التحريش بين اثنين وإيقاع العداوة بينهما، قالوا: إن فلاناً قد أصابك بعينه، أو أنه عيّان، فاحذر منه، ومع ضعف الإيمان وضعف التوكل على الله، وخوف الكثيرين من الناس ما لا يخافون من الله ـ صار هذا من أعظم مداخل الشيطان في هذا الزمان للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فاحذر أخي الكريم من هذه الوسوسة، وتوكل على الله، ومن توكل عليه كفاه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ - من حديث أنس - رضي الله عنه.

(٣) هذا البيت لوليد الأعظمي شاعر عراقي ضمن قصيدة بعنوان شباب الجيل انظر ديوانه «الزوابع» ص٦٩.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

الواو: استئنافية. و«أظلم» على وزن «أفعل» التفضيل، أي: لا أحد أشد ظلماً.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: من الذي اختلق على الله الكذب فجعل له الأنداد والشركاء، والصاحبة والولد، وكذب رسله، ورماهم بالسحر كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال الطبري[1]: «ومن أشد ظلماً وعُدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر وما جاء به سحر»

و«أفعل» التفضيل هنا على بابه، لأن أظلم الظلم وأشده الشرك بالله عز وجل، لأن حقه عز وجل أوضح الحقوق وأبينها وأعظمها فمن صرفه لغير الله أو أشرك معه غيره فليس هناك من هو أظلم منه، ولهذا قال لقمان فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو قسمان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي عليهم - وهذا داخل في ظلم النفس.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الواو: للحال، أي: في الحال التي يدعى فيها ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: إلى الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. أي: وقد أقيمت الحجة عليه بدعوته إلى الإسلام بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات فلا حجة له ولا عذر.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

يُدعى إلى أصل الخير ورأسه وأعظمه الإيمان، فيختار أصل الشر ورأسه وأعظمه الشرك، أمره عجيب وحاله مريب ومنقلبه كئيب.

إذ الواجب البحث عن الحق وطريقه لو لم يدع إليه، فكيف يتركه وقد دعي إليه، ويختار طريق الباطل هذا في غاية الظلم والسفه والجهل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكلام فيه كما سبق في الكلام على قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: إن الله عز وجل لا يوفق القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالاعتداء على حقوقهم. وهذا مجازاة لهم حجب الله هدايته عن قلوبهم بسبب ظلمهم، ولهذا قال الله - تعالى - فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿يُرِيدُونَ﴾ أي يقصدون ويحاولون بظلمهم.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ اللام للتعليل وهي بمعنى «أن» كما في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٣٢].

أي: يريدون ليطفئوا ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور الله: هو نور وحيه، نور القرآن - كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

ومنه النور الذي يلقيه في قلوب عباده المؤمنين كما قال عز وجل في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بافترائهم الكذب على الله والباطل بقولهم بأفواههم، بجعل الأنداد والشركاء له والصاحبة والولد، وردهم الحق، وقولهم لما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وغير ذلك.

وإنما خص الأفواه بالذكر - مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو بفعل إلا عملوها - إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفاً ووهناً ممن يريدون إطفاء

نور الشمس بالنفخ بأفواههم.

قال ابن كثير[١]: «أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل».

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وحفص (مُتِمُّ) بغير تنوين و(نُورِهِۦ) بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب.

أي: والله مكمل نوره ومظهره على الأديان كلها كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو كره الكافرون إتمام نوره وإكماله.

والكافرون: جمع كافر، وهو من جحد وجود الله وربوبيته وألوهيته أو أسماءه وصفاته، وشريعته، أو شيئاً من ذلك.

قال الطبري[٢]: «والله معلنٌ الحق، ومظهر دينه، وناصر محمداً - ﷺ - على من عاداه، فذلك إتمام نوره وعني بالنور في هذا الموضع الإسلام».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ هذا كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٣٣]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٢٨].

أي: هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أي: بعث رسوله محمداً - ﷺ - أفضل الرسل وخاتمهم.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالوحي والعلم النافع. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: والدين الحق وهو العمل الصالح.

وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع وعمل صالح - نسأل الله التوفيق، ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[٣].

فالهدى: العلم النافع، والسداد: العمل الصالح.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجعله ظاهراً عالياً.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٨.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٥، وأبو داود في الخاتم ٤٢٢٥، والنسائي في الزينة ٥٢١٠ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (الدين) اسم جنس، أي ليجعله ظاهراً عالياً على الأديان كلها السماوية والأرضية مهيمناً عليها ناسخاً لها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: ولو كره المشركون ظهور الإسلام على الأديان كلها من الشرك وغيره. فهذا الدين هو الظاهر على الأديان كلها، وأتباعه هم الظاهرون على غيرهم الغالبون لمن سواهم ما إن تمسكوا به، فإن تخلوا عنه واكتفوا بالانتساب إليه فقط، فلا غلبة لهم ولا ظهور، وواقع المسلمين اليوم أكبر شاهد على هذا.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك سيكون تاماً. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام فأشرك مع الله غيره وكذب رسله ورماهم وما جاؤوا به من الحق بالسحر.

٢ ـ عدم توفيق الله للظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بالشرك والمعاصي ـ بعد إقامة الحجة عليهم.

٣ ـ إرادة المكذبين الظالمين إطفاء نور الله «نور الحق» بافترائهم الكذب بأفواههم وأقوالهم الباطلة وأنى لهم ذلك فالله متم نوره ولو كره الكافرون ذلك ورغم أنوفهم.

٤ ـ الإشارة لعظمة الحق وظهوره وثباته، وأن مثل من يريد إطفاء نوره وإبطاله كمن يحاول عبثاً إطفاء نور الشمس.

٥ ـ الامتنان على العباد بإرساله ـ عز وجل ـ محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق أي: بالعلم النافع والعمل الصالح وإظهاره على جميع الأديان ولو كره المشركون ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٦، والحاكم ٤/٤٤٦، ٤٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

جاء في سبب نزول هذه السورة أن الصحابة سألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يدل على أن من أهم ذلك الإيمان به والجهاد في سبيله، فذلك التجارة الرابحة.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

«هل» حرف استفهام، وفيه معنى التشويق والترغيب.

و«التجارة» تطلق على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

كما تطلق التجارة على جزاء الأعمال والمتاجرة مع الله - عز وجل - بالإيمان والأعمال الصالحة للفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي المرادة بالتجارة هنا في قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾؟ وهي التجارة حقاً.

ولهذا أتبعها بقوله ﴿تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفسرها بقوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ونكرت تجارة هنا للتعظيم. قال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن

سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: تكون سبباً في نجاتكم وسلامتكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو عذاب النار، لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، وليس بعوض عن دخول الجنة كما يقوله المعتزلة. ودخول الجنة والنجاة من النار إنما هو برحمة أرحم الراحمين، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[3].

و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: موجع حساً ومعنى، وهو عذاب النار، العذاب الأكبر والأشد مع ما يسبقه من العذاب الدنيوي بالأنفس والأموال وفقدان السعادة لمن خالف أمر الله.

وقدم قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على تفسير وبيان التجارة تشويقاً للتجارة وقدم النجاة من النار على دخول الجنات لأن التخلية قبل التحلية وإشارة إلى أن من نجا من النار دخل الجنة إذ ليس هناك سوى هتين المنزلتين، إما الجنة وإما النار كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

لما تشوقت النفوس وتطلعت إلى معرفة ما هي هذه التجارة، التي فيها النجاة من العذاب الأليم وذلك بقوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسرها وبيّنها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾.

فالتجارة الرابحة حقاً هي التجارة مع الله - عز وجل - بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وفي قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعد ندائهم باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ دليل على حاجة الإنسان إلى الإيمان كل لحظة والزيادة منه والثبات عليه. كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في هدايته للإيمان وتثبيته عليه وزيادته منه.

ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

ومعنى الإيمان بالرسول ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو في قوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعظيم له ﷺ، وأن من لازم الإيمان: الإيمان بالله ورسوله. فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله ـ عز وجل ـ فليس بمؤمن، فالإيمان بالله والرسول متلازمان.

كما أن فيه جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم في باب الإيمان والطاعة، لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله ورسوله درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، به الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة - نسأل الله التوفيق والثبات على الإيمان حتى الممات.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة والوسع ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله - كما قال ﷺ -: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: وتبذلون جهدكم وطاقتكم ووسعكم في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله.

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم الجهاد بالأموال هنا وفى جميع المواضع في القرآن عدا قوله في سورة التوبة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [الآية: ١١١]. وذلك لأهمية الجهاد بالمال، فالجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالجهاد بالمال والعدة والعتاد والسلاح والزاد والمراكب وغير ذلك.

وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وإن كانت خبراً فمعناها الطلب والأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ولهذا جاء جوابه مجزوماً في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وقد قرأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «آمنوا بالله ورسوله»[١].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والذي هو التجارة الرابحة مع الله عز وجل.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: خير لكم خيرية مطلقة من تجارة الدنيا، ومن الدنيا بحذافيرها، وغير ذلك. فالخير كل الخير بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله

و«خير» وإن كان اسم تفضيل، فإنه لا يدل على أن في عدم الإيمان وترك الجهاد شيئاً مفضولاً من الخير، لأن اسم التفضيل قد يستعمل في المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة بل هو شر محض، كما في قوله عز وجل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] فلا يؤخذ من هذا أن أهل النار عندهم شيء من خير المستقر وحسن المقيل إذ لا خير في النار البتة ولا حسن فيها بل كل ما فيها شر وسوء.

وقد سئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ ، قال: «حج مبرور»[٢].

وعن عبد الله بن حبشي الخثعمي – رضي الله عنه –: أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»[٣].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم، تعلمون به ما ينفعكم، وتهتدون

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ١٥٤، «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٢٦، والدارمي في الصلاة ١٤٢٤.

به لما فيه خيركم وسعادتكم في دينكم ودنياكم، أي: اعلموا أن في المتاجرة مع الله في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الخير كل الخير لكم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

هذا هو جواب الأمر المفهوم من جملة الخبر ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله بأموالكم وأنفسكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وهو تفسير للخيرية في قوله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه – كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة أن الله عز وجل يقرر عبده المؤمن بذنوبه، فيقول – عز وجل –: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾

جنات: جمع جنة، والجنة في الأصل البستان، وسمي البستان جنة لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة وثماره الكثيرة.

والمراد بقوله: «جنات»: ما أعده الله عز وجل لأوليائه في دار كرامته مما لا تقاس به جنات الدنيا وبساتينها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

ونكر «جنات» تعظيماً لشأنها – جنات، وأي جنات، جنات ونعم الجنات.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

والمعنى: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠] يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، ويصرفونها كيف شاؤوا بلا جداول ولا أخدود.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر»[١].

قال ابن القيم [٢]:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

وهي أنواع – كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وتتفجر من الفردوس – كما قال ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[٣].

﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: ويدخلكم مساكن ومنازل ﴿طَيِّبَةً﴾ طيبة السكن يطيب فيها حال الساكن ويرتاح ويسر ويطمئن ويأمن كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾ «عدن» بمعنى إقامة دائمة أبدية. أي: في جنات إقامة أبدية لا يتحولون عنها كما قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة لما سبق من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/٢٩٦.

(٢) في «النونية» ص٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير – درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/٣٣٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية الذي لا يقدر كنه عظمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

وفي جعل قوله ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الآية مكتنفين لتفسير التجارة إشارة إلى أن التجارة هي مجموع الأمرين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وما أعد الله لهم من الجزاء عليه من النجاة من النار والمغفرة ودخول الجنات.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ الواو: عاطفة و«أخرى» مفعول به لفعل محذوف تقديره «يؤتكم» مجزوم عطفاً على «يغفر». أي: ويؤتكم نعمة وزيادة وثمرة أخرى عاجلة في الدنيا «تحبونها».

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على عدوكم.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ أي: وفتح من الله قريب لكم لبلاد الكفر كمكة وغيرها من المدن والأمصار. وذلك إذا آمنتم بالله ورسوله وجاهدتم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، كما قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا نصر الله - عز وجل - النبي ﷺ والمؤمنين على أعدائهم، وفتح لهم مكة وغيرها من البلاد وفاءً بما وعدهم، وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيان معنى البشارة واشتقاقها والخطاب للنبي - ﷺ - ولكل من يصلح له. أي: وأخبر المؤمنين بالخبر السار لهم في دنياهم وآخرتهم وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب ودخول الجنات والفوز العظيم والنصر على الأعداء والفتح القريب.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه ينبغي أن نكون مبشرين كما قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا،

وبشرا ولا تنفرا»[١].

وهذا التعبير القرآني العظيم والتوجيه النبوي الكريم يذكرني بكلمة أحب أن أسجلها لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تلك العبارة الرقيقة التي تدخل إلى شغاف القلوب عندما يسأله سائل كثيراً ما يختم إجابته له بقوله: «وأبشر بالخير» فرحمك الله يا شيخنا وبشرك بكل خير، وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد كنت مثالاً يحتذى في الدعوة إلى الله، وفي فعل الخير، وقوله وفي تحبيب الناس إليه، وفي محبته لهم.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهميته، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من الأوامر.

٢ ـ الحض والترغيب على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٣ ـ أن التجارة الرابحة بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ففيها النجاة من العذاب الأليم، وفيها الخير كل الخير ومغفرة الذنوب والفوز بجنات النعيم، والنصر في الدنيا والفتح القريب.

٤ ـ أن الإيمان بالله ورسوله متلازمان وأنهما شرطان لقبول الأعمال.

٥ ـ أن الجهاد المشروع في الإسلام هو ما كان في سبيل الله، أي لإعلاء كلمة الله ووفق ما شرع الله.

٦ ـ أهمية الجهاد بالمال ولهذا قدم على الجهاد بالنفس وكل منهما مهم في وقته وعند الحاجة إليه.

٧ ـ عظم ما أعده الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله من الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار والمساكين الطيبة مع الإقامة الأبدية فيها وذلك الفوز العظيم.

٨ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بالنصر على أعدائهم وفتح بلاد الكفر، وهكذا حصل بفضل الله عز وجل.

٩ ـ البشارة المطلقة للمؤمنين بالسعادة والنصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. فلله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

صلة الآية بما قبلها:

رغب عز وجل بالإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين بمناصرة دين الله؛ كما فعل الحواريون من أتباع عيسى عليه السلام.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النداء للمؤمنين من هذه الأمة.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وعاصم (أنصارَ) بغير تنوين، مضافاً إلى لفظ الجلالة، وقرأ الباقون بالتنوين ولام الجر (أنصاراً لله). أي: كونوا أنصار دينه - كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾

﴿ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جمع حواري، والحواري: صفي الرجل وخاصته. والمراد: أتباع عيسى وأنصاره وأعوانه.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ «من» للاستفهام، وفيه معنى التحضيض أي: من أنصاري وأعواني منكم يا قوم في دعوتي وطريقي إلى الله.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ أي: قال الحواريون، وهم أصفياء عيسى وأتباعه ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أنصار دينه.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا في الاستجابة لله ولرسوله، ونصرة دينه كالحواريين في الاستجابة لعيسى عليه السلام ونصرته فيما جاء به من عند الله، وليس في هذا ما يستلزم، بل ولا ما يدل على فضل الحواريين على صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة. إذ لا أفضل من صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير[١]: «وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩.

حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً منعوني أن أبلغ رسالة ربي»[١] حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فصدقت طائفة وجماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ورسالته وانقادوا له.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ أي: جحدت طائفة وجماعة رسالته وهم اليهود.

قال ابن كثير [٢]: «اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم - وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الآب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله».

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي: نصرنا الذين آمنوا مع عيسى من الحواريين وقويناهم على من عاداهم من اليهود وفرق النصارى الكافرة.

﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: فأصبحوا ظاهرين على عدوهم بتأييد الله ونصره لهم لأنهم على الحق.

ولهذا فإن من تأييد الله لهم - كما قال بعض المفسرين - بعثة محمد ﷺ.

فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما أراد الله - عز وجل - أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشر مرة، بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب قال: أنا. قال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩ - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩ وانظر ٢/ ٤٠١.

الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم، اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ -: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، في إظهار محمد دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾»[1].

قال ابن كثير[2] بعد سياقه عن ابن عباس: «فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح - عيسى ابن مريم - عليه السلام - كما وردت الأحاديث الصحاح والله أعلم».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء من أمر.

٢ ـ تحضيض المؤمنين على الاستجابة للرسول ﷺ ونصرة دين الله كما فعل الحواريون أتباع عيسى عليه السلام، وأخذ القدوة من المؤمنين قبلهم.

٣ ـ التذكير بقدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر.

٤ ـ الثناء على الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام ـ بنصرتهم دين الله.

٥ ـ تأييد الله ـ عز وجل ـ وتقويته ونصره للمؤمنين من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ على أعدائهم الكافرين وإظهاره لهم. وهكذا فإنه عز وجل ينصر أولياءه في كل زمان ومكان والعاقبة للمتقين.

---

(١) أخرجه الطبري «جامع البيان» ٢٢/ ٦٢٢ - ٦٢٣.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٠.

تفسير سورة الجمعة

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين»[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد، وفي آخر سورة الحشر.

﴿الْمَلِكِ﴾ أي: الملك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما الخالق لذلك كله المتصرف فيه بأمره وحكمه.

والمِلك أعم من المالك، وأبلغ، لأن كل ملِك مالك وليس كل مالك ملكاً.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المعظم المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الآية إجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حين دعا لأهل مكة بقوله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: هو الله سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وفي هذا تذكير بعظمته عز وجل، وعظيم نعمته عليهم.

و«بعث» بمعنى أرسل، و«الأميين» جمع أمي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة – ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٩، والنسائي في الجمعة ١٤٢١.

[آل عمران: ٢٠].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد الخلق فهو عربي من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

وهو أمي أيضاً قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتخصيص الأميين، وهم العرب بالذكر لتذكيرهم بعظيم نعمة الله عليهم، فالمنة عليهم أبلغ وآكد، كما أن المسؤولية عليهم في تبليغ الدعوة أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] لأنه بلسانهم كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. **وقال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وإلا فهو مبعوث فيهم وفي غيرهم، وذكر لهم ولغيرهم كما قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنذركم به وأنذر به كل من بلغه القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم آيات الله - عز وجل - القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم بما يتلو عليهم من آيات الله - عز وجل - وما فيها من المعاني والأحكام والآداب والمواعظ التي فيها طهارة النفوس والقلوب والأبدان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعملهم القرآن والسنة، وما فيهما من الأحكام والحكم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٩٦] أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ الواو: حالية. أي: والحال أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين.

والمعنى: وإن كانوا من قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: بُعد وتيه عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح في نفسه، ﴿مُّبِينٍ﴾ أمر من كان عليه أنه ضائع تائه. وأي: ضلال أبين من الشرك بالله - عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «فبعثه الله - سبحانه وتعالى ولله الحمد والمنة - على حين فترة من

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٢.

الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه... وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم – عليه السلام – فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها، وأولوها، فبعث الله محمداً – صلوات الله وسلامه عليه – بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم... وجمع له تعالى – ولله الحمد والمنة – جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة».

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: وآخرين ممن بعث فيهم الرسول ﷺ وأنزل فيهم القرآن ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ لم يحن وقت لحوقهم بهم، أي: أنهم يأتون بعدهم ويدخل فيهم من يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على عموم رسالته ﷺ. فالمعنى (لما يلحقوا بهم) في الزمن، أي: أنهم يأتون بعدهم، أو ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ في الفضل. والآية تحتمل الأمرين معاً.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: كنا جلوساً عند النبي – ﷺ – فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم، حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال – أو رجل من هؤلاء»[(١)].

وعن سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ -: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ يعني بقية من بقي من أمة محمد – ﷺ»[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإشارة إلى ما أعطاه الله – عز وجل – لمحمد ﷺ – وخصه به من الرسالة والنبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته إليهم وإنزال القرآن الكريم عليه ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فأكرم بهذا وأنعم به من فضل كما قال عز وجل ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ـ فضل فارس ٢٥٤٦، والترمذي ٣٢٦١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٥ – الأثر ١٨٨٩١.

فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والفضل: الزيادة منه – عز وجل – بلا استحقاق من المتفضل عليه.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعطيه الذي يشاء من عباده، فتفضل على محمد – ﷺ – بالرسالة، وتفضل على أمته ببعثته فيهم.

وفي هذا إثبات المشيئة لله عز وجل – كما يليق بجلاله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: والله صاحب الزيادة والإفضال والإنعام والجود العظيم، لا راد لفضله ولا مانع لعطائه كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم ما لا نحتاج معه إلى أحد سواك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات لله ـ عز وجل.

٢ ـ إثبات أسماء الله ـ عز وجل: «الملك»، «القدوس»، «العزيز»، «الحكيم» وما تدل عليه من كمال ملكه وتدبيره وتصرفه، وتمام عظمته، وعزته عزة القوة والقهر والامتناع، ونفوذ أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، وحكمته البالغة التامة في شرعه وقدره وأمره ونهيه.

٣ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على العرب وامتنانه عليهم وعلى العالم أجمع ببعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه.

٤ ـ أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبون وهكذا كان النبي ﷺ.

٥ ـ أن من نعمة الله ـ عز وجل ـ وفضله على العرب خاصة جعل النبي منهم وبلسانهم يتلو عليهم القرآن ويطهرهم معنوياً من الشرك والمعاصي وحسياً من النجاسات والأحداث ويعلمهم القرآن والسنة.

٦ ـ أن المسؤولية في تبليغ الرسالة على العرب أعظم وآكد، لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم.

٧ ـ أن القرآن والسنة كل منهما من وحي الله ـ وهما مصدرا التشريع.

٨ ـ ضلال العرب البين الواضح وبعدهم عن الحق قبل بعثة محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن.

٩ ـ عموم رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس السابق منهم واللاحق.

١٠ ـ تأكيد عزته ـ عز وجل ـ وكمال حكمه وتمام حكمته ومن كمال عزته وحكمه وحكمته أن بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس كافة وأنزل عليه القرآن الكريم.

١١ ـ الإشارة لعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على محمد ﷺ في تخصيصه بهذه الرسالة العظيمة وعلى العرب في اختياره منهم وعلى الأمة المحمدية كلها ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه.

١٢ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وعظم فضله وإفضاله وإنعامه على الخلق.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل فضله على الأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه، أتبع ذلك بذم اليهود الذين أنزل الله عليهم التوراة فلم يعملوا بها وكذبوا بآيات الله.

وذلك بياناً لما هم عليه من سيء الصفات، وتحذيراً للأمة المحمدية من مسالك اليهود المغضوب عليهم.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ «مثل» أي: شبه ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ يعني اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة وكلفوا علمها والعمل بما فيها.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزله – عز وجل – على نبيه وكليمه موسى بن عمران – عليه السلام – كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده»(١).

وفي الحديث الآخر: «أن الله غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده»(٢).

أنزلها الله عز وجل جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: ثم لم يعملوا بها، بل خالفوها وحرفوها وبدلوها وكذبوا بمحمد – ﷺ – وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه وتصديقه.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ أي: مثلهم في عدم العمل بالتوراة وعدم الانتفاع بها والاستفادة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، والترمذي في القدر ٢١٣٥، وابن ماجه في المقدمة ٨٠، وأحمد ٢/ ٢٦٨، ٣٩٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/ ٩٧، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٧٤.

منها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ كمثل وشبه الحمار الحيوان المعروف الذي يضرب به المثل في البلادة.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ الأسفار: جمع «سِفْر» وهي كتب العلم الكبار، أي: يحمل كتباً على ظهره، لكنه لا يدري ماذا عليه، وماذا فيها، ولا تلحقه فضيلة بسبب حملها، ولا ينتفع بها ولا يستفيد منها بوجه، ولو حملت عليه كتب الدنيا كلها، وإنما حظه منها النصب والتعب والثقل. كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

قال الزمخشري[1]: «شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم أنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفاراً، أي: كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل».

وقال ابن كثير[2]: «أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحمله حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»[3].

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٩٦.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٣.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٨٤: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، وفيه مجالد ابن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بئس: فعل ذم، أي: قبح وساء شبه اليهود الذين كذبوا بآيات الله. فقد شبهوا في هذا المثل بالحمار أبلد الحيوانات، حال كونه يحمل كتباً في العلم لا يستفيد منها لعدم فهمه، وفقدانه ما أعطاهم الله من فهم، إذ لو كان هذا الحمار يحمل طعاماً لأحس وشعر به بخلاف الأسفار.

والمراد بآيات الله ما يشمل الآيات الشرعية التي أنزلت في التوراة، والآيات الكونية، ومنها الآيات التسع التي أيد الله بها موسى كالعصا والحية والطوفان وغيرها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يقبل أعمالهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم وقد سبق الكلام على هذه الآية مفصلاً في سورة الصف.

وفي قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن هذا المثل كما هو مثل لليهود هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وكان من الظالمين من اليهود وغيرهم من هذه الأمة.

وقال ابن القيم[1]: «قاس من حمّله – سبحانه – كتابه، ليؤمن به، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله، إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره، ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: نادهم منبهاً لهم بهذا الوصف، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: الذين رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين يهودا، أحد أنبياء بني إسرائيل وأحد أولاد يعقوب – عليه السلام.

﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ أي: إن ادعيتم. والزعم يطلق غالباً على زعم الأمر الباطل.

﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أحبابه، والذين يوالونه ويوادونه ويواليهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٤٨ – ٤٤٩.

ويحبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]، وكما قال قائلهم: نحن شعب الله المختار فهم يزعمون أنهم أولى الناس بالله وأنهم هم الذين على الهدى، وأن محمداً ﷺ وأصحابه وغيرهم على ضلالة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فاطلبوا الموت أو ادعوا على أنفسكم بالموت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أولياء الله وأحباؤه، لتنالوا أجر ولايتكم، لأن المحب يحب القرب من حبيبه، ولتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها بالموت، ولتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه.

قال ابن كثير[1]: «أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه».

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ الواو: عاطفة و«لا» نافية، أي: ولا يمكن أن يتمنوه أبداً.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: ولا يتمنونه أبدا بسبب الذي قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي والظلم والفجور، أو بسبب تقديم أيديهم ذلك لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا خيراً، بل لم يقدموا إلا الكفر والمعاصي، وليس أمامهم بعد الموت إلا النار. كما قال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو جهل - لعنه الله -: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام الواسع بالظالمين وأعمالهم وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٤.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة العلق ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة اقرأ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

وسيحاسبهم ويجازيهم عليها وهو عز وجل عليم بالظالمين وغيرهم وبجميع خلقه وسيجازي كلا بعمله وإنما خص الظالمين هنا تهديداً لهم ووعيداً، لأن السياق معهم، بل مع أظلم الظالمين، وهم اليهود المغضوب عليهم.

﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي: الذي تهربون منه وتخافونه أيها اليهود ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لا محالة، فلا بد أن تموتوا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال زهير[١]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو علي طريقها

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب[٢]

وقال الآخر:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ثم بعد الموت تبعثون وترجعون إلى عالم السر والعلانية، وهو الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

وقدّم عز وجل الغيب على الشهادة لتأكيد كمال علمه وأن السر عنده كالشهادة، كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أو فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تشبيه اليهود في كونهم حملة التوراة ولم يعملوا بها بأقبح مثل وأحقره وهو مثل الحمار يحمل كتباً في العلم ولا ينتفع بها وبئس المثل مثلهم لتكذيبهم بآيات الله ومثل

---

(١) انظر «ديوان زهير» ص٢٩.

(٢) البيت للشاعر محمد بن عثيمين.

ذلك من سلك طريقهم في معرفة الحق وعدم العمل به.

٢ ـ عدم توفيق الله وهدايته للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم.

٣ ـ تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، لأن من كان ولياً لله حقاً يحب لقاءه.

٤ ـ نفي الله ـ عز وجل ـ تمني اليهود الموت أبداً لعلمهم أنهم لم يقدموا لما أمامهم سوى الكفر والمعاصي وما يستوجبون به النار.

٥ ـ تهديد الله ـ عز وجل ـ للظالمين من اليهود وغيرهم بعلم الله عز وجل بما هم عليه من الظلم وأنه سيجازيهم بأعمالهم.

٦ ـ أنه لا مفر ولا محيد من الموت ولابد لجميع الخلق من لقائه.

٧ ـ إثبات البعث والمعاد بعد الموت وإخبار العباد بأعمالهم ومجازاتهم عليها.

٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بالشاهد والغائب والسر والعلانية والوعيد للظالمين والوعد للمؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا أذن لصلاة الجمعة، وهذا يدل على مشروعية النداء لها.

ويوم الجمعة: هو سابع أيام الأسبوع، وهو أفضلها.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه»[(١)].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»[(٢)].

﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امضوا واقصدوا وسيروا إلى ذكر الله – أي: إلى صلاة الجمعة وخطبتها – وفي التعبير بقوله ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ إشارة إلى أنه ينبغي المبادرة بعد النداء بالذهاب إليها والاهتمام بها والتفرغ لها، والإقبال بالقلب على السعي إليها. وليس المراد بذلك الركض والمشي السريع إليها.

قال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[(٣)].

ويؤخذ من قوله ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أن الجمعة فريضة يجب السعي إليها وأن الخطبتين لها فريضة يجب حضورهما لأن المراد بالذكر الخطبتان والصلاة.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا البيع والأمر للوجوب، وهو أمر للبائع والمشتري، لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٤٩١ – بنحوه، وأخرجه مختصراً البخاري في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٩٣٥، ومسلم في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٨٥٤، وأبو داود في الصلاة ١٠٤٦، والنسائي في الجمعة ١٤٣٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة – هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ـ لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار ٦٣٦، ومسلم في المساجد – استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعياً ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٥٧٢، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٧٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري أيضاً ٦٣٥، ومسلم ٦٠٣ – من حديث أبي قتادة – رضي الله عنه.

البيع يطلق على الأمرين ولهذا قال ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[(١)].

والمراد بالنداء في الآية النداء الثاني الذي بين يدي خروج النبي ﷺ وجلوسه على المنبر، وكذا الأئمة من بعده.

لأن النداء الأول إنما أمر به الخليفة الراشد - عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ليجتمع الناس لما كثروا، كما في حديث السائب بن يزيد - رضي الله عنه - قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن، وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[(٢)]»[(٣)].

وقد قال ﷺ «عليكُم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[(٤)].

فيجب السعي إلى الصلاة وسماع الخطبة، ويحرم البيع بعد النداء الثاني باتفاق أهل العلم.

قال ابن كثير[(٥)]: «ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة».

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى صحة البيع، وإن كان البيع في هذا الوقت محرماً بالإجماع.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى مصدر الأمر السابق في قوله ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير لكم، خيرية مطلقة من كل وجه في الدنيا والآخرة، إذ لا مقارنة بين إجابة أمر الله وطاعته، وما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وبين الانشغال بالدنيا الفانية وما فيه الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم تهتدون به إلى ما ينفعكم.

ومن أهم أسباب الحصول على هذا الخير الموعود به التبكير إلى الجمعة ما أمكن ذلك والغسل والسواك والطيب ولبس أحسن ثيابه، والقرب والدنو من الإمام للأحاديث الكثيرة الواردة في فضل ذلك.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل غسل الجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٧٩، ومسلم في البيوع ١٥٣٢، وأبو داود في البيوع ٣٤٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٧، والترمذي في البيوع ١٢٤٦ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) الزوراء: هي دار بالمدينة قرب المسجد فكان يؤذن عليها.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة - الأذان يوم الجمعة ٩١٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٨٧، والنسائي في الجمعة ١٣٩٢، والترمذي في الجمعة ٥١٦.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢ - من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٥) في «تفسيره» ٨/١٤٩.

ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[1].

وعن أوس بن أوس الثقفي ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها»[2].

كما يستحب لها الغسل، كما دل عليه حديث أبي هريرة وحديث أوس وغيرهما، وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»[3].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[4].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة»[5].

كما يستحب لها السواك والطيب، وأن يلبس لها أحسن ثيابه ففي بعض روايات حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله»[6].

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله – إن كان عنده – ولبس من أحسن ثيابه، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة فضل الجمعة ٨٨١، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٥٠، وأبو داود في الطهارة ٣٥١، والنسائي في الجمعة ١٣٨٨، والترمذي في الجمعة ٤٩٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة – الغسل يوم الجمعة ٣٤٥، والنسائي في الجمعة ـ فضل غسل يوم الجمعة ١٣٨١، والترمذي في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٤٩٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ الغسل يوم الجمعة ١٠٨٧، وأحمد ٤/ ١٠٤. وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٨٧٧، والنسائي في الجمعة ١٣٧٦، والترمذي في الجمعة ٤٩٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٨.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٥٨، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، وأبو داود في الطهارة ٣٤١، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٩.

(٥) أخرجه النسائي في الجمعة ـ إيجاب الغسل يوم الجمعة ١٣٧٨، وأحمد ٣/ ٣٠٤ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده». أخرجه البخاري ٨٩٨، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٤٩.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥.

